أخبار عدىّ بن زيد

نسبه

هو عدىّ بن زَيد بن حَمَّادبن زَيد بن أيّوب بن مَخْروف بن عامر بن عُصَيَّة ابن امرىء القيس بن زَيد مَنَاةَ بن تَميم بن مُرٍّ بن أُدٍّ بن طابِخَةَ بن اليأس بن مُضَر ابن نِزار بن مَعَدّ بن عَدْنان .

وكان أيّوب هذا أوّل من سُمِّى من العرب أيّوبَ .

منزلته فى الشعر

وعدىّ هـذا شاعرٌ فَصيح من الجاهليَّـة . وكان نَصْرانيًّا ، وكذلك أبوه وأهله ، وليس مَعدوداً من الفحول . وهو قَرَوىّ ، قد أَخذوا عليه أشياء عِيبَ بها .

وكان الأَصمعىّ وأبو عُبيدة يقولان :

عدىّ بن زَيد فى الشُّعراء بمنزلة سُهيل فى النُّجوم ، يُعارضها ولا يجرى معها .

وكذلك عندهم أُمَيَّـة بن أبى الصَّلْت ، ومثلُهما عنـدهم من الإسلاميين : الـكُمَيت والطِّرِمَّاح .

سبب نزول آله الحيرة

وكان سَبب نُزول آل عدىّ بن زيد الحِيرةَ أنّ جدَّه أيوب بن مَخْروف كان منزلهُ اليمامةَ فى بنى امرىء القيس بن زيد منـاةَ . فأصاب دماً فى قومه فهَرب ، فَلَحِق بأَوْس بن قَلَّام ، أحدبنى الحارث بن كعب بالحِـيرة . وكان بين أيّوبَ ابن مَخْروف و بين أَوس بن قَلَّام هذا نسبٌ من قِبَـل النساء ، فلمّا قَدِم عليـه أيّوب بنُ مَخروف أكرمه وأنزله فى داره ، فمكث معـه ما شاء الله أن يمكُثَ . ثم إنّ أوساً قال له : يابْنَ خالِ ، أتريدُ المُقامَ عندى فى دارى ؟ فقال له أيّوب : نعم ، فقـد علمتُ أنّى إنْ أتيتُ قومى وقد أصبتُ فيهم دماً لم أسْـلَمَ ، ومالى دارٌ

إلا دارُكَ آخرَ الدَّهْر . قال أوسٌ : إنّى قد كِبِرتُ وإنّى خائف أنْ أموتَ فلا يَعرِفُ ولدى لكَ من الحقّ مثلَ ما أعرفُ ، فأخشى أن يقَع بينكَ وبينهم ما يَقطعون فيه الرَّحِمَ ، فانظُر أحبَّ مكانٍ فى الحِيرة إليكَ فأَعْلِمنى به لأُقْطِعَكه أو أبتاعَه[1] لكَ . وكان لأيّوبَ صديقٌ فى الجانب الشّرقىّ من الحِيرة ، وكان منزلُ أَوْسٍ فى الجانب الغربىّ . فقال له : قد أحببتُ أن يكون المنزلُ الذى تُسكِنُنيه عند منزلِ عِصام بنِ عَبْدةَ[2] أحدِ بنى الحارث بن كَعْب. فابتاع له موضعَ داره بثلثمائة أُوقيّة من الذَّهب، وأَنفق عليها مائتى أوقيّة ذهباً ، وأعطاه مائتين من الإبل برِعائِها وفرساً وقَيْنَةً . فمكث فى منزلِ أَوْسٍ حتى هَلَكَ ثم تحوَّل إلى داره التى فى شرقىّ الحِيرة ، فهلك بها . [وكان أيّوب] قد اتّصل قبل مَهْلَكه بالمُلوك الذين كانوا بالحِيرة وعرفوا حقَّه ، وحقَّ ابنه زَيد بن أيُّوب . فلم يَكُن منهم مَلِكٌ يملك إلّا ولِوَلَدِ أيّوبَ منه جوائزُ وحُمْلانٌ[3] .

ثم إن زيد بن أيوبَ نكح امرأة من آل قَلَّام ، فولدتْ له حمّادًا . فخرج زيدُ بن أيوب يوما من الأيام يُريد الصيدَ فى ناسٍ من أهل الحِيرة ،وهم مُتَبَدُّون[4] بِحَفير[5] ، المكانِ الذى يذكره عدىّ بن زَيد فى شِعره ، فأنفرد فى الصَّيْد وتباعد من أصحابه ، فلقيه رجُلٌ من بنى امرىء القيس الذين كان لهم الثأرُ قِبَل أبيه ، فقال له: وقد عَرَفَ فيه شَبَهَ أيوبَ : مِمَّنْ الرجلُ ؟ قال : من بنى تَميم . قال : من أيهم ؟ قال : مَرَئِىّ[6] .قال له الأعرابىّ : وأينَ مَنْزِلُك ؟ قال : الحِيرة ؟ قال : من بنى أيّوب أنْتَ ؟ قال : نعم ! ومن أين تَعرِف بنى أيوبَ ؟ واستوحش من الأعرابىّ

(١) فى الأصل : « وأتباعه » . (٢) فى الأصل : « عقدة » .
(٣) الحملان : ما يحمل عليه من الدواب ، فى الهبة خاصة .
(٤) تبدى : خرج إلى البادية . وفى بعض أصول الأغانى : « منتدون » . وانتدى القوم : اجتمعوا . (٥) حفير : موضع بالحيرة . ذكره البكرى .
(٦) مرئى : نسبة إلى امرىء القيس .

وذكر الثأر الذى هَرب أبوه منه ، فقال له : سمعتُ بهم ، ولم يُعْلِمه أنه قد عرفه . فقال له زيدُ بن أيوبَ : فمن أىّ العرب أنت ؟ قال : امرؤ من طيىء فأَمِنه زيدٌ وسكت عنه . ثم إنّ الأعرابىّ اغتفل[1] زيدَ بن أيّوب فرماه بسهم فوضعه بين كَتفيْه ، فَفلق قلبه . فلم يَرِمْ[2] حافرُ فرسه حتى مات . فَلبثَ أصحابُ زَيد ، حتى إذا كان الليلُ طلبوه وقد افتقدوه ، فظنُّوا أنه قد أُمعن فى طلب الصَّيْد ، فباتوا يطلبونه حتى يَئِسُوا منه . ثم غدوا فى طلبه فاقتفوا أثَرَه حتى وقعوا عليه ، ورأوْا معه أَثَرَ راكبٍ يُسايره . فاتبعوا الأثرَ حتى وجدوه قتيلا . فعرفوا أنّ صاحب الرَّاحلة قاتله . فأتبعوه وأَغذُّوا السيَر ، فأدركوه مساء الليلة الثانية ، فصاحُوا به ، وكان من أَرمَى الناس ، فامتنع منهم بالنَّبل حتى حال اللَّيلُ بينهم وبينه . وقد أصاب رجلاً منهم فى مَرْجِع كتفيْه[3] بسهم . فلمّا أجنَّه الليْلُ مات . وأفلتَ الرَّامى[4] . فرجعوا وقد قُتل زيدُ بن أيّوب ورجلٌ آخرُ معه من بنى الحارث بن كعب ، فمكث حَمَّاد فى أخواله حتى أَيْفَع ، فخرج يوماً من الأيام يَلْعَبُ مع غِلْمَان بنى لِحْيَان ، فَلَطَمَ اللِّحيانى عَينَ حمّاد فشَجّه حماد . ، فخرج أبو اللّحيانى فضَرَب حمّادا . فأتى حمّادَ أمَّه يبكى ، فقالت له : ما شأنُك ؟ فقال : ضَربنى فلان ، لأنّ ابنَه لَطمنى فشَجَجْته . فجَزِعت من ذلك وحوّلته إلى دار زَيد بن أيّوبَ ، وعلَّمته الكتابة فى دار أبيه . فكان حمّاد أولَ من كَتب من بنى أيوبَ ، فخرج مِن أكْتب الناس ، وطُلب حتى صار كاتبَ الملك النُّعْمان الأكبر ، فلبث كاتباً له حتى ولد له ابنٌ من امرأة تزَوَّجها من طيىء ، فسماه زيداً ، باسم أبيه . وكان لحمّاد صديقٌ من الدَّهاقِين[5] العُظماء يقال له فَرُّوخ ماهان ، وكان محْسِناً إلى حماد ، فلما حضرتْ حَمَّاداً الوفاةُ أوصَى بابنه زَيْد إلى الدِّهقان ، وكان مِن المرازبة .[6] فأخذه الدِّهقان

(١) اغتفل ، يريد : تغفل . ولم ترد فى المعاجم . (٢) لم يرم : لم يبرح .
(٣) مرجع الكتفين : أسفلهما . (٤) فى الأصل : « المرئى » .
(٥) الدهاقين : التجار ، فارسى معرب ؛ الواحد : دهقان .
(٦) المرازبة : جمع مرزبان ، وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك . فارسى معرب .

إليه ، فكان عنده مع ولده . وكان زيد قد حَذِق الكتابةَ والعربيةَ قبل أن يأخذه الدِّهْقانُ ، فعلَّمه لمّا أخذه الفارسيَّة ، فلَقِنها . فأشار الدِّهقان على كِسْرى أن يجعله على البَريد فى حوائجه . ولم يكُن كسرى يَفعل ذلك إلا بأولاد المَرازبة ، فمكث يَتولّى ذلك لكسرى زماناً . ثم إن النُّعمان النَّصْرىَّ اللَّخْمى هَلك ، فاختلف أَهْلُ الحِيرة فيمن يُمَلِّكونه إلى أن يَعقِدَ كسرى الأمرَ لرجُلٍ يُنَصِّبه. فأشار المَرْزُبان عليهم بزيد بن حمَّاد بن زَيد بن أَيوب ، فكان على الحِيرة إلى أن ملّك كسرى المنذرَ بنَ ماء السماء . ونَكح زيدُ بن حمَّاد نعْمة بنتَ ثَعْلَبة العَدوية ، فولدت له عدىَّ بن زيد . وملك المُنذرُ بن ماء السماء ، فكان لا يَعصيه فى شىء ، وولد للمرزبان ابن فسمّاه «شاهان مَرْد». فلما تحرَّك[1] عدىّ بن زيد وأَيفع طرحه أبوه فى الكُتّاب، حتى إذا حَذِق أرسله المَرْزبان مع ابنه «شاهان مَرد» إلى كُتَّاب الفارسية ، فكان يَختلفُ مع ابنه فيتَعلّم الكتابة والكلامَ بالفارسيَّة ، حتى خرج من أفهم الناس وأفصحهم بالعَربيّة ، وقال الشّعر ، وتَعلّم الرّمىْ بالنُّشّاب . فخَرج من الأَساورة[2] الرُّماة ، وتَعلَّم لِعْبَ العجم على الخيل بالصَّوَالجة[3] وغيرها . ثم إن المرزبان وفَد على كِسْرى ومعه ابنه «شاهان مَرْد» .فبينما هما واقفان بين يديه إذ سَقط طائران على السُّور ، فتَطاعما كما يتطاعم الذَّكر والأنثى ، فجعل كل واحد منهما مِنقارَه فى مِنقار الآخر . فغَضِب كسرى ولحقَتْه غَيْرة ، فقال للمرزُبان وابنه : لِيَرْم كلُّ واحد منكما واحداً من هذين الطائرين ، فإن قتلتماهما أدخلتكما بيتَ المال وملأتُ أفواهكما بالجوهر، ومَن أخطأ منكما عاقبتُه . فاعتمد كلُّ واحد منهما طائراً منهما ورَمَيا، فقتلاهما جميعاً. فبعث بهما إلى بيت المال فمُلئت أفواهُهما جوهراً،وأثبت «شاهان مَرْد» وسائر أولاد المَرْزبان فى صَحابته . فقال فَرُّوخ ماهان للملك : إن عندى

(١) فى الأصل : «تجرأ» .

(٢) الأساورة : جمع الأسوار ، بالضم والكسر ، وهو الجيد الرمى بالسهام .

(٣) الصوالجة : جمع صولجان ، عصا يعطف طرفها تضرب بها الكرة على الدواب . فارسى معرب.

غلاماً من العرب مات أبوه ، وخلَّفه فى حِجْرى ، وهو أفصحُ الناس وأكتبهم بالعربيّة والفارسية ، والملِكُ محتاج إلى مثله ، فإنْ رأى الملكُ أنْ يُثْبته فى وَلدى فَعل . فقال : أدعه. فأرسل إلى عدىّ بن زَيد ، وكان جميلَ الوجه فائقَ الحُسْن، وكانت الفُرْس تتبرّك بالجميل الوجه ، فلما كلّمه وجده أظرفَ الناس وأحضرَهم جواباً، فَرَغِبَ فيه وأثبته مع وَلَدالمرزُبان . فكان عَدِىٌّ أولَ مَن كَتب بالعربية فى ديوان كِسْرى ، فرَغِب أهْلُ الحِيرة إلى عَدِىّ ورَهبوه . فلم يزل بالمدائن فى ديوان كِسْرى يُؤذَن له عليه فى الخاصة ، وهو مُعْجَبٌ به قريبٌ منه . وأبوه زيد بن حماد يومئذ حىّ ، إلا أنَّ ذِكْر عدىّ قدارتفع وخَمل ذكرُ [أبيه] زيد. فكان عدىّ إذا دَخل إلى المنذر بن ماء السماء مَلِك الحيرة قام جميعُ مَنْ عنده حتى يقعدَ عدىّ . فعَلا له بذلك صوتٌ عظيم . فكان إذا أراد المُقام بالحيرة فى منزله ومع أبيه وأهْلِه استأذن كِسْرى فأقام فيهم الشهرَ والشهرين وأكثرَ وأقلَّ . ثم إن كسرى أرسل عَدِىّ ابن زيد إلى مَلِك الرُّوم بهديّة من طُرَف ما عنده . فلما أتاه عدىّ بها أكرمه وحمله إلى أعْماله على البريد ليُريه سَعَةَ مُلْكه . وكذلك كانوا يصنعون . فمن ثَمَّ وقع عدىّ بدِمَشْق ، وقال فيها الشِّعرَ . فممَّا قاله بالشأم ، وهو أول شِعر قاله :

رُبَّ دارٍ بأسْفلِ الجِزْعِ من دُو ... مَةَ أَشْهى إلىّ من (١) جَيْرُونِ
وَنَدامَى لا يَفْرحون بما نا ... لُوا ولا يتَّقُون صَرْفَ المَنُون
قد سُقيتُ الشَّمولَ فى دار بِشْرٍ ... قَهْوَةً مُزَّةً بماء سَخِين

زيد أبو عدى على الحيرة وبقاء اسم الملك للمنذر

وفَسد أمْرُ الحِيرة وعَدِىّ بدمشق حتى أصلح أبوه بينهم ، وذلك لأن أهل الحِيرة حين كان عليهم المُنذِر ، أرادوا قَتْله ، لأنه كان لا يعدِلُ فيهم ، وكان يأخذ من أموالهم مايُعجبه . فلمَّا تيقن أن أهلَ الحِيرة قد اجتمعوا على قَتْله ، بعث إلى

(١) دومة . هذه : من منازل جذيمة الأبرش ، وهى دومة الحيرة . (عن البكرى) . وجيرون : دمشق ، وقيل : بناء كان عند باب دمشق حوله مدينة تطيف به .

زَيد بن حمّاد بن زَيد بن أيوب ، وكان قبلَه على الحيرة ، فقال له : يازيد ، أنت خليفةُ أبى، وقد بَلغنى ما أجمعَ عليه أهلُ الحيرة ،فلا حاجة لى فى مُلكهم ، دُونكموه مَلّكوه مَن شئتم . فقال زيد : إن الأمر ليس إلىّ ولكنى أَسْبُرلك هذا الأمرَ ولا آلُوك نُصْحا . فلما أصبح غَدَا إليه الناس فحيَّوه تحية الملك ، وقالوا له : أَلاَ تبعث إلى عَبْدِك الظالم ـ يَعْنون المُنْذِر ـ فتُريحَ منه رعيّتك ؟ فقال لهم : أَوَلا خَيْرٌ من ذلك ؟ فقالوا : أَشِرْ . فقال : تَدَعونه على حاله ، فإنه من أهل بَيتِ مُلْكٍ ، وأنا آتيه فأُخْبره أنّ أهلَ الحيرة قد اختاروا رجلاً يكون أمر الحيرة اليه ،إلاّ أن يكون غَزْو أو قتالٌ ، فلك اسم المُلْك وليس إليك سوى ذلك من الأمور . قالوا : رأيُك أفضل . فأتى المنذرَ فأخبره بما قالوا . فقَبِل ذلك وفَرح،وقال : إن لك علىّ يازيد نعمةً لا أكفُرها ماعرفتُ حقّ سَبَد ـ وسبَد : صنم كان لأهل الحيرة ـ فولّى أهلُ الحيرة زَيداً على كلّ شىء سوى اسم المُلْك ،فإنهم أقرُّوه للمنذر . وفى ذلك يقول عدىّ بن زَيد :

نحن كُنّا قد عَلِمْتُم قَبْلَكم ... عَمَدَ البيتِ وأوتادَ الإصَارِ[1]

مقدم عدى ولقاء المنذر له

ثم هَلك زَيْدُ بن حمّاد ، وابنه عدىٌّ يومئذٍ بالشّأم ، وكان لزيد ناقةٌ للحَمَالات[2]، وكان أهل الحيرة أعطوْه إيّاها حين ولّوه ما وَلّوه . فلما هَلك أرادوا أخذَها ، فبلغ ذلك المنذِرَ فقال : لا ، واللاتِ والعُزّى ، لا يُؤخذ مما كان فى يد زيدٍ ثُفْرُوق[3] وأنا أسمع الصوتَ . ففى ذلك يقول عدىٌّ بن زيد لابنه النُّعمان ابن المُنْذِر :

وأبوكَ المرءُ لم نَشْق[4] به ... يومَ سِيمَ الخَسْفَ مِنّا ذوالخَسارِ

(١) الإصار : الطنب . أو هو جل الخباء والسرادق ونحوهما .

(٢) الحمالات : الديات والغرامات التى يحملها قوم عن قوم ؛ الواحدة : حمالة .

(٣) الثفروق : علاقة ما بين النواة والقمع من التمرة . يكنى به عن القلة .

(٤) كذا فى الأصل . والذى فى بعض أصول الأغانى : « لم يشنأ به » .

ثم إنّ عدىَّ بن زَيد قَدِم المدائنَ[١] على كسرى بهدِيَّةِ قَيصر ، فَصاذف أباه والمَرْزُبانَ الذى ربَّاه قد هَلَكا جميعاً ، فاُستأذن كسرى فى الإلمام بالحِيرة ، فأَذِن له ، فتوجَّه إليها . و بلغ المُنْذِرَ خَبرُه، فخرج فتلقّاه فى الناس ورَجع معه .

وعَدِىٌّ أَنبلُ أهلِ الحِيرة فى أنفُسهم ، ولو أراد أن يُمَلِّكوه لَمَلَّكوه ، ولكنّه كان يومئذ يُؤْثِر الصَّيدَ واللَّهْوَ واللَّعِبَ على المُلْك . فمكث سِنين[٢] يَبْدو فى فصْلى السَّنة ، فيُقيم فى جَفير[٣] و يَشْتُو بالحيرة ، و يأتى المدائنَ فى خلال ذلك فيخدُم كسرى . فمكث كذلك سِنين، وكان لايُؤثر على بلاد بنى يَرْبوع مَبْدًى من مَبادى العرب ، ولاينزل فى حىّ من أحياء بنى تميم وغيرهم . وكان أَخِلّاؤه من العرب كلِّهم بنى جَعفر . وكانت إبلُه فى بلاد بنى ضَبَّة و بلاد بنى سَعْد . وكذلك كان أَبُوه يفعل لا يُجاوز هذين الحَيَّيْن بإبله .

ولم يزل على حاله تِلْك حتى تزوَّج هِنْدَ بنت النُّعمان الأَصْغَر ، اُبن المُنذر الأكبر[٤] ، اُبن اُمرىء القيس بن النُّعمان بن اُمرىء القيس بن عمرو بن عدىّ بن نَصْر بن ربيعة بن عَمْرو بن الحارث بن مَسْعود بن مالك بن غَنْم بن مُمارة بن لَخْم ، وهو مالك بن عدىّ بن الحارث بن مُرَّة بن أُدَد بن زَيْد بن يَشْجُبَ بن عَريب اُبن زيد بن كَهْلانَ بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان . وفيها يقول عدىّ بن زَيد : زواج عدى بهند

يا خَليلىَّ يَسِّرَا التَّعْسِيرَا ثم رُوحَا فهجِّرا تَهْجِيرَا
عَرِّجا بى على ديارِ لهنـــدٍ ليس أنْ عُجْتُما المَطِىَّ كثيرا

وكانت هِنْد هذه من أجمل النساء . وأُمها مارية الكِنْدِيّة ، وكانت خَرجت

(١) المدائن : مسكن الملوك الأكاسرة ، كان كل واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه مدينة إلى جنب التى قبلها وسماها باسمه ، فسميت المدائن بذلك .

(٢) يبدو : أى يخرج إلى البادية . (٣) جفير : موضع . (معجم البلدان) . والذى فى الأصل : « بالبر » . (٤) فى بعض أصول الأغانى : « المنذر بن المنذر » .

فى خَميس الفِصْح[١] تتقرَّب فى البيعة . ولها حينئذ إحدى عشرةَ سنة . وذلك فى أيام جدِّها المُنْذِر ، وقد قَدِم عدىّ بن زيد بهديّة من كِسْرى إلى المنذر ، وأبوها النُّعمان يومئذ فتًى شابّ . فاتفق دخولُها البيعة وقد دَخلها عدىّ ليتقرَّب ، فرَآها عدىٌّ وهى غافلةٌ ، فلم تَنْتبِه له حتى تأمّلها . وقد كان جواريها رَأَيْنَ عديًّا وهو مُقبل . فلم يقُلن لها ذلك لكى يراها عدىّ . و إنما فعلن هذا من أجل أَمَةٍ لهند يقال لها : مارية. وقد كانت أحبت عديًّا فلم تَدْر كيف تتأتّى له . فلما رأت هندٌ عديًّا ينظُر إليها ، شَقَّ ذلك عليها وسَبَّتْ جواريها ونالت بعضهنّ بضرب . ووقعتْ هِنْد فى نفس عَدىّ ، فلَبث حَوْلًا لا يُخبر أحداً بذلك . فلما كان بعد حولٍ وظنّت مارية أنّ هِنداً قد أضربتْ عمّا جَرَى وصفتْ لها بِيعة دُومة — وقيل : بِيعة تُوما — ووصفت لها مَن فيها من الرَّواهب ومَن يأتيها من جَوارى الحِيرة ، وحُسنَ بنائها وسُرُجها ،وقالت لها : سَلِى أُمَّك الإذنَ لك فى إتيانها . فسألتْها ذلك. فأذنتْ لها . وبادرتْ مارية إلى عَدِىّ فأخبرتْه الخبرَ . فبادر فلبس يَلْمَقًا[٢] كان « فَرْخَانْشَاهْ مرْد » قد كساه إيّاه ، وكان مُذْهباً لم يُرَ مِثْلُه حُسْناً . وكان عدىّ حَسنَ الوجه مديد القامة حُلْو العينين حَسَن المَبْسِم[٣] نقِىَّ الثَّغْر . وأخذ معه جماعةً من فِتيان الحِيرة . فدخل البيعة . فلمّا رأتْه قالتْ لهندٍ : أنظُرى إلى هذا الفتى ، فهو والله أحسنُ من كل ما تَرَيْنَ من السُّرُج وغيرها ! قالت : ومن هو ؟ قالت : عدىّ ابن زَيد . قالت : أتخافين أن يَعْرفنى إن دنوتُ منه لأراه . قالت : ومن أين يعرفك ؟ ومارآك قطُّ حتى يعرفك ! فدنتْ منه وهو يمازح الفتيان الذين معه، وقد بَرَع عليهم بجماله وحُسن كلامه وفَصاحته ، وما عليه من الثِّياب . فذَهِلت لَمَّا رأَتْه و بُهِتتْ تنظُر إليه ، وعرَفت مارية مابها وتَبَيَّنَتْه فى وجهها . وانصرفت وقد تبعتْه نفسُها . وانصرف بمثل حالها. فلمّا كان الغدُ تعرّضت له مارية . فلما رآها هَشَّ لها،وكان قبل ذلك

(١) الفصح : عيد الإفطار : يصومون ثمانية وأربعين يوماً ، ويجعلون فصحهم يوم الأحد الذى يجىء بعد الصوم . وقبل الفصح بثلاثة أيام : خميس العهد. وظاهر أنه المراد هنا. (انظر الآثار الباقية للبيرونى ، وصبح الأعشى) . (٢) اليلمق : القباء ، فارسى معرب . (٣) فى الأصل : « الجسم » .

لا يُكلِّمها ، وقال لها : ما غدا بك ؟ قالت : حاجةٌ إليك . قال : أذكريها ، فوالله لا تسأليني شيئاً إلّا أعطيتُك إيّاه . فعرّفته أنها تهواه وأن حاجتها الخلوةُ به ، على أن تحتال له فى هِنـد ، وعاهدته على ذلك . فأدخلها حانوتَ خمّارٍ بالحِيرة ووقع عليها . ثم أتتْ هِنْداً فقالت : أمَا تَشتهين أن ترَىْ عَدِيًّا ؟ قالت: وكيف لى به ؟ قالت : أُعِدُه مكانَ كذا وكذا فى ظَهْرِ القَصْرِ وتُشْرِفين عليه . قالت : أفعلى . فواعدته إلى ذلك المكان ، وأشرفت عليه هِنْـد . فكادت تموت . وقالت : إن لم تُدخليه إلىّ هلكتُ . فبادرتِ الأَمَةُ إلى النُّعمان وخبَّرته وصدقته وذكرتْ أنهـا قد شُغِفَتْ به ، وأن سببَ ذلك رُؤيتها إيّاه فى يوم الفِصْح ، وأنه إن لم يُزَوِّجها به افتضحتْ فى أمره أو ماتت . فقال لها : ويلك ! وكيف أبدؤُه ؟ فقالت : هو أرغبُ فى ذلك من أن تَبدأه ، وأنا أحتال فى ذاك من حيثُ لا يعلم أنك عرفتَ أمره . فأتتْ عديًّا فأخبرته الخبرَ ، وقالت : أدْعه ، فإذا أخذ الشرابُ منه فاخطُب إليه فإنَّه غيرُ رَادّك . فقال: أخشَى أن يُغضبه ذلك فيكونَ سببَ العداوة بيننا . قالت : ما قلتُ لك هذا حتى فرغتُ منه . فصَنع عديٌّ طعاماً واُحتفل فيه ، ثم أتى النعمانَ بعد الفِصْح ، وذلك يوم الأثنين . فسأله أن يتغدَّى عنده هو وأصحابه ، ففعل . فلما أخذ منهم الشرابُ خَطبها إلى النُّعمان ، فأجابه وزوّجه . فضمّها إليه بعد ثلاث[1] . فمكثت عنده حتى قَتله النُّعمان . فترهّبت وحَبستْ نفسها فى الدَّيرِ المعروف بدَير هِنْد فى ظاهر الحِيرة .

وقيل: بَلْ ترهبت بَعد ثلاث سِنين من تَزويجه بها ومنعتْه نفسها . واُحتَبست فى الدَّير حتى ماتت .

وكانت وفاتها فى الإسلام فى خلافة معاوية بن أبى سُفْيان ، وكان المُغيرة إذ ذاك والياً على الكوفة .

خطبة ابن شعبة لهند بعد ترهبها

وذُكر أن المُغيرة بن شُعْبَة لما ولاّه معاوية ، مَرَّ بدَيْرِ هند هذه ، ودخل عليها

(١) فى بعض أصول الأغانى : « ثلاثة أيام » .

بعد أن استأذن عليها ، فأَذِنتْ له وبَسطتْ له مِسْحاً[1] ، فجلس عليه ، ثم قالت : ماجاء بك ؟ قال : جِئْتُ خاطباً : قالت : والصَّليبِ ! لو علمتُ أن فىَّ خَصلةً من جَمال أو شبابٍ رَغَّبتْك فىّ لأجبتُك ، ولكنك أردتَ أن تقول فى المواسم : ملكتُ مملكة النُّعمان بن المُنذر ، ونكحتُ أُبنته ، فبحقِّ مَعبودك ! هذا أردْتَ ؟ قال : إى والله . قالت : فلا سبيلَ إليه . فقام المغيرة وانصرف ، وقال فيها :

أدْركتِ ما منَّيتُ نفسِىَ خَالِيًا ... لله دَرُّكِ يابنـــةَ النُّعمَانِ
فلقد ردْدتِ على المُغيرة ذِهْنـه ... إنَّ الملوك نَقِيَّةُ الأذْهان
ياهِنْدُ حَسْبُك قدصَدَقْتِ فَأَمْسِكى ... فالصِّدقُ خيرُ مقالة الإنسان

حديث ميلها إلى زرقاء اليمامة وبناء الدير

وذُكر أن هِنْدًا هذه كانت تَهْوى زَرقاءَ اليَمامة ، وأنها أوّلُ امرأة أحبتْ امرأة فى العرب . وكانت الزرقاء ترى الجيش على مسيرة ثلاثين ميلاً . فغزا قومٌ من العربِ اليمامة . فلما قَرُبوا من مسافة نظرها قالوا : كيف لكم بالوصول مع الزَّرقاء ! فاجتمع رأيهم على أن يَقْتَلِعُوا شجراً ، تستُر كلُّ شجرة منها الفارسَ إذا حملها . فقطع كلّ واحد منهم بمقدار طاقته وسارُوا . فأشرفتْ كما كانت تفعل . فقال لها قومُها : ما تَرَيْن يازرقاء ؟ وذلك فى آخر النهار . قالت : أرى شجراً يَسير . فقالوا : كذبتِ ، أو كذبَتْكِ عينُكِ ! واستهانوا بقولها . فلما أصْبحوا صَبَحهم القومُ ، فاستباحوا أموالَهم وقتلوا منهم مقتلةً عظيمةً . وأخذوا الزرقاء ، فقلعوا عَينها ، فوجدوا فيها عُروقاً سوداء . فسُئلتْ عنها ، فقالت : إنى كنت أُديمُ الاكتحالَ بالإثمد . فلعلَّ هـذا منه . وماتتْ بعد أيَّام .

و بلغ هنداً بنتَ النعمان خبرُها ، فترهّبتْ ولبستْ المُسُوح ، و بَنت الدَّير المعروف بدَيْرِ هِنْد ، فأقامت فيه حتى ماتت .

(١) المسح : كساء من شعر .

شعر عدى فى مصاهرته للنعمان

وقد ذكر عدىُّ بن زيد مُصاهرته للنُّعمان فى قصيدة يُخاطبه بها ، بعد أن حَبسه ، أولُها :

* أبصرتْ عينى عِشاءً ضوء نَارِ *

النعمان فى حجر عدى

يقول فيها :

أَجْلَ نُعْمَى رَبَّهَا أَوَّلَكم ودُنُوِّى كان منكم واصْطِهارِى

ثم هَلك المُنْذِر بن ماء السماء ، وهى أمّه ، وأبوه المُنذر الأكبر . كما ذكرناه فى نَسبه ، وخلّف ابنه النُّعمان . وكان مَضموماً إلى عدىّ بن زيد ، وآلُ عَدِى هم الذينَ أرضعوه ورَبّوه . وخلّف أيضا الأَسْوَد ، وأمّه مارية بنت الحارث بن جُلْهُم ابن تيم الرَّباب ، وكان أرضعه ورَبّاه قومٌ من أهل الحِيرة يُقال لهم : بنو مَرِينا ، يَنْتسبون إلى لَخْم ، وكانوا أشرافاً . وكان للمُنذر بن المنذر سوى هذين من الوَلد عشرَةٌ . وكان يُقال لولده : الأَشاهب ، من جَمالهم . وفى ذلك يقول أَعْشَى بن قَيْس بن ثعلبة :

و بنو المُنذر الأشاهبُ بالحِيـ ـرَةِ يَمْشون غُدْوةً كالسُّيوفِ

سعى عدى فى تولية النعمان والخلاف بينه وبين ابن مرينا

وقيل : بل كانوا ثلاثةَ عَشَر . وكان النُّعمان من بينهم أحمرَ أبرش[1] قصيراً ، وأُمه سَلْمَى بنتُ وائل بن عَطِيَّة الصّائغ ، من أهل فَدَك[2] . وأوصى بهم أبوهم إلى [إياس بن] قَبيصةَ الطائى ، وملّكه على الحِيرة إلى أن يَرى كسرى رأيَه . فمكث عليها مُمَلَّكاً أشهُراً ، وكسرى فى طَلب رجل يُمَلِّكه عليهم ـ وهو كسرى أبرويز ابن هُرْمُز بن أنُوشِرْوان ـ فلم يجد أحداً يَرْضاه ، فضَجِر وقال : لأبعثنَّ إلى الحِيرة اثنى عشر ألفاً من الأساورة ، ولأُمَلِّكن عليهم رجلاً من الفُرس ، ولآمرنَّهم أن يَنزلوا على العرب فى دُورهم و يملكوا عليهم أموالَهم ونِساءهم . فكان عدىّ بن

(١) الأبرش : الأرقط الأنمر ، الذى يكون فيه بقعة بيضاء وأخرى أى لون كان .

(٢) فدك : قرية بالحجاز بينها و بين المدينة يومان .

زيد واقفاً بين يديه ، فأقبل عليه وقال : ويحك ياعديّ ! مَن بقي من آل المُنذر ؟ وهل فيهم أحدٌ فيه خير؟ فقال: نعم أيها الملك، إن فى ولد المُنذر لبقيةً ، وفيهم[1] كلهم خير . فقال: أُبعث إليهم. فبعث عديّ إليهم وأحضرهم وأنزلهم جميعاً عنده . فلما نزلوا عليه أرسل إلى النُّعمان : لستُ أُملِّك غيرك فلا يُوحشنَّك ما أفضِّل به إخوتَك عليك من الكرامة ، فإنى إنما أغترُّهم بذلك . ثم كان يفضّل إخوته جميعاً عليه فى النُّزول[2] والإكرام والملازمة، ويُريهم تنقُّصًا للنعمان، وأنه غيرُ طامعٍ فى تمام أمر على يديه . وجعل يخلو بهم رجُلاً رجلاً فيقول : إذا أُدخلتم[3] على الملك فالبَسوا أفخرَ ثيابكم وأجملها ، وإذا دعاكُم إلى الطَّعام لتأكلوا تَباطأوا فى الأكل ، وصغِّروا اللُّقَم، ونَزِّروا ماتأكُلون . فإذا قال لكم : أتكْفُونى العرب ؟ فقولوا : نَعم . فإذا قال لكم : فإن شذَّ أحدكُم عن الطاعة أو فسد[4] أتكفُونَنيه ؟ فقولوا : لا ، إنّ بعضنا لا يَقدر على بعض ؛ ليهابَكم ولا يَطمع فى تفرّقكم ،ويَعلم أن للعرب مَنَعَةً و بأساً . فقبلوا منه . وخلا بالنُّعمان فقال له : البِسْ ثِيَاب السَّفر وأدْخل مُتَقَلِّداً سَيْفَك ، فإذا جلستَ للأكل فعَظِّمْ اللُّقَمَ وأسْرِع المَضْغ والبَلْع وزِدْ فى الأكْل ، وتجوَّع قبل ذلك ؛ فإن كسرى يُعْجبه كَثرةُ الأكل من العرب خاصَّة ، ويَرَى أنه لا خَيْرَ فى العربىّ إذا لم يكن أَكُولا ، ولا سيَّما إذا رأى غَيْرَ طَعامه وما لا عَهْدَ له بمثله . وإذا سألك : هل تَكْفينى العربَ ؟ فقُل : نعم . فإذا قال : فمن لى بإخوتك ؟ فقل : إن عجزتُ عنهم فإنّى عن غيرهم لأَعْجَزُ .

وخلا ابنُ مَرينا بالأسْود بن المُنذر ، فسأله عمّا وصّاه به عديّ . فأخبره . فقال : غشَّك والصَّليبِ والمَعْموديّة ! وما نَصحك ! ولئن أطعتنى لتُخالفنَّ كُلَّ ما أمرك به ولتُملِّكنَّ ، ولئن عصيتَنى ليُملِّكن النعمانُ . ولا يَغُرَّنك ما أراكه من الإكرام والتَّفْضيل على النُّعمان ؛ فإن ذلك دَهاء فيه ومكر وحِيلة . فقال له : إن عَدِيًّا لم يألُنى

(١) فى الأصل : « كل » مكان « كلهم ». (٢) فى الأصل : « فى النزل ». (٣) فى الأصل : « دخلتم » .
(٤) فى بعض أصول الأغانى : « وأفسد » .

نُصْحًا ، وهو أعلمُ بكسرى منك ، وإن خالفتهُ أوحشتهُ فأفسد عليّ ، وهو جاء بنا ووصَفنا ، وإلى قوله يرجع كسرى . فلما يئس ابنُ مَرينا من قَبوله منه ، قال : ستعلم !

ودعا بهم كِسْرى ، فلمّا دخلوا عليه أعجبه جمالُهم وكمالُهم ، ورأى رجالاً قلّما رأى مثلَهم . فدَعا لهم بالطعام ، ففعلوا ما أمرهم به عديّ . فجعل ينظرُ إلى النُّعمان من بينهم ويتأمّل أكله . فقال لعديّ بالفارسيَّة : إن لم يكن فى أحد منهم خَير ففى هذا . فلما غَسلوا أيديَهم جعل يدعو رجلاً رجلاً فيقول له : أتكفينى العربَ ؟ فيقول : أكفيكها كُلَّها إلّا إخوتى . حتى انتهى إلى النُّعمان آخرهم ، فقال له : أتكفينى العربَ ؟ فقال : نعم . فقال : كلّها ؟ قال : نعم . قال : كيف بإخوتك ؟ قال : إن عجزتُ عنهم فأنا عن غيرهم أعجز . فملّكه وخلع عليه وألبسه تاجاً قيمتُه ستّون ألفَ دينارٍ ، فيه اللُّؤلؤ والذهب .

فلما خرج وقد مُلِّك النُّعمان . قال ابن مَرينا للأسود : دونك عُقْبى خِلافِك لى . ثم إن عديًّا صَنع طعاماً فى بيعةٍ . فقال لابن مَرينا . ائْتنى بمن أحببت فإنّ لى حاجةً . فأتى فى ناسٍ فتغدَّوا فى البيعة . فقال عديّ بن زيد لابن مَرينا : ياعديّ ، إن أحقَّ من عرف الحق ثم لم يَلُم عليه من كان مثلَك ، وإنى قد عرفتُ أنّ صاحبَك الأسودَ بن المُنذر كان أحبَّ إليك أن يملّكَ من صاحبى النُّعمان ، فلا تَلُمْنى على شىء كنتَ على مثله ، وأنا أحبّ ألّا تحْقِد علىّ شيئاً لو قدرتَ عليه رَكِبْته ، وأحب أن تُعطِينى مَن نفسك ما أُعطيك من نفسى ، فإن نَصيبى فى هذا الأمر ليس بأوفر من نَصيبك ، وقام إلى البيعة فحلف ألاّ يَهْجُوه أبداً ، ولا يَبْغيه غائلةً أبداً . ولا يَزْوِى[1] عنه خيراً أبداً . فلما فرغ عديٌّ بن زيد ، قام عديّ بن مَرينا فحلَف مثل يَمينه ألاّ يزالَ يهجُوه أبداً ، ويَبْغِيه الغوائلَ ما بَقِى .

وخَرج النعمانُ حتى نَزل منزلَ أبيه بالحِيرة . فقال عديّ بن مَرينا لعديّ بن زيد:

(١) يزوى : يقبض .

ألاَ أبلغْ عَدِيًّا عن عَدِيٍّ ... فلا تَجْزَعْ وإن رَثَّت[1] قُوَاكَا
فإن تَظْفَرْ فلم تَظْفَرْ حَمِيدًا ... وإن تَعْطَبْ فلا يَبْعُد سِوَاكَا
نَدِمْتَ نَدَامَةَ الكُسَعِىِّ[2] لمّا ... رَأَت عَيناكَ ما صنعتْ يَدَاكَا

تدبير ابن مرينا للإيقاع بعدى ابن زيد

ثم قال عدىّ بن مرينا للأسود : أما إذا لم تَظْفَر فلا تعجزَنّ أن تَطلُب بثأرك من هذا المَعدىِّ الذى فَعل بك ما فَعل . فقد كنتُ أُخبرك أنّ معدًّا لا ينام كيدُها ومكرها ، وأمرتك أن تَعْصِيَه ، فخالَفتنى .

قال : فما تُريد ؟ قال : أريد ألاّ تأتيك فائدةٌ من مالك وأرضك إلاّ عرضتَها علىّ . ففعل . وكان ابن مَرينا كثيرَ المال والضَّيعة . فلم يكن فى الدَّهر يوم يأتى إلاّ على باب النُّعمان هدِيّةٌ من ابن مَرينا . فصار من أكرم الناس عليه ، حتى كان لا يَقْضى فى مُلكه شيئاً إلاّ بأمر ابن مَرينا . وكان إذا ذُكر عدىّ بن زيد عند النُّعمان أحسنَ الثَّناء عليه وَشَيَّع[3] ذلك بأن يقول : إن عدىّ بنَ زَيد فيه مَكْرٌ وخَديعة ، والمَعدّى لا يَصْلح إلاّ هكذا . فلما رأى مَنْ يُطيف بالنُّعمان منزلةَ ابن مَرينا عنده لَزِموه وتابعوه[4] ، فجعل يقول لمن يثِق به : إذا رأيتمونى أذكُر عَدِيًّا عند الملك بخير فقُولوا : إنَّه لكذلك ، ولكنّه لا يَسْلَم عليه أحد ، وإنه ليقول : إن الملكَ ـ يعنى النعمان ـ عَامِلهُ ، وإنه هو ولاّه . فلم يزالوا كذلك حتى أضْغَنُوه عليه . فكتبوا كتاباً على لسانه إلى قَهْرَمَانٍ[5] له ، ثم دَسُّوا إليه حتى أخذوا الكتابَ منه وأتَوْا به النُّعْمانَ فقرأه . فاشتدّ غَضَبُه ، وأرسل إلى عدىّ بن زَيد : عزمتُ

(١) رثت : ضعفت .

(٢) الكسعى : نسبة إلى كسع ، حى من قيس ، عيلان ـ وقيل : من اليمن ـ رماة . والكسعى هذا الذى يضرب به المثل رجل رام رمى بعد ما أظلم الليل عيرا فأصابه ، وظن أنه أخطأ فكسر قوسه ، ثم ندم من الغد حين نظر إلى العير مقتولا وسهمه فيه .

(٣) شيع : أتبع .

(٤) فى الاصل : « وبايعوه » .

(٥) القهرمان : أمين الملك وخاصته ، وهو كذلك الخازن والوكيل . فارسى معرب .

عليك إلاّ زُرْتَنى . فإنّى قد اُشتقتُ إلى رُؤْيتك .وعدىّ يومئذٍ عنـد كسرى . فاُستأذن كسرى ، فأَذِن له . فلمّا قَدِم عليه لم ينظُر إليه حتى حَبسه فى مَحْبسٍ لا يدخل عليه فيه أحد .

ثم كان من أَمره معه ماسنذكره إن شاء الله تعالى[1] .

عدى وتنصر النعمان

وذُكر أنّ عدىّ بن زَيد كان سببَ تَنَصُّر النعمان بن المُنذر ، وكان يعبُد الأوثان قبل ذلك .

قيل : إنه خرج لَظْهر الحِيرة ، ومعه عدىّ بن زيد العِبادىّ ، فمرّ على المقابر من ظهر الحِيرة ونهرها . فقال له عدىّ بن زيد . أَبَيْتَ اللعن ! أَتَدْرى ما تقول هذه المقابر ؟ قال : لا . فقال له : تقول :

أَيُّهـا الرَّكْبُ المُخِبُّو نَ على الأرض[2] المُجِدُّونْ
وكما أنتُمْ كذا كُنّا وكما نَحْن تكونُونْ

وقيل : بل قال : إنها تقُول :

كنّا كما كنتُمُ حيناً فغَيَّرنا دَهْرٌ فسوف كما صِرْنا تَصيرونَا[3]

فاُنصرف وقد دخلتْه رقّةٌ . فمكث بعد ذلك يَسيراً ، ثم خرج خَرجةً أُخرى ، فمرّ على المقابر ومعه عَدِىٌّ ، فقال له : أَبَيْتَ اللَّعْنَ ؟ أتدرى ما تقولُ هـذه المقابر ؟ قال : لا . قال : فإنها تقول :

مَنْ رَآنا فَلْيُحَـدِّثْ نَفْسَه أَنَّهُ مُوفٍ على قَرْنِ[4] زَوَالِ
وصُرُوفُ الدَّهْرِ لا يَبْقَى لها ولِمَا تَأْتى به صُمُّ الجِبَـال
رُبَّ رَكْبٍ قد أَناخُوا حولنَا يَشْربون الخمرَ بالماء الزُّلاَل

(١) انظر بقية أخبار «عدى» فيما سيأتى (ص ٢١٢) من هذا الجزء . (٢) فى الأصل : «مجدون».
(٣) فى الاصل : «تكونونا». (٤) على قرن زوال ، أى على طرف زوال.

والأَبَارِيقُ عليهـــا فُـدُمٌ وجِيَادُ الخَيْلِ تَرْدِى[1] فى الجِلال
عَمــرُوا دَهْراً بعيشٍ حَسَنٍ آمِنِى دَهْرِهُمُ غَـــيرَ عِجَـال
ثم أَضحَوْا عَصَفَ الدَّهرُ بهم وكذاك الدهرُ يُودِى بالرِّجال
وكذاك الدهرُ يَرْمِى بالفتَى فى طِلابِ العَيشِ حالًا بعد حال

فرجع النُّعمان وتَنَصَّر. وهو الصَّحيح .

ورَوى الـكَلْبِىُّ أَنَّه قال لعدىّ :أُئْتنى الليلةَ إذا هدأت الرِّجْلُ لتعرفَ حالى . فأتاه فوجده قد لَبسَ المَسُوحَ وتَنصَّر وترهّب وخَرج سائِحاً على وجهه ، فلا يُدْرَى ما كانت حالُه ، وتَنصّر ولدُه بعده ، و بَنَوا البِيعَ والصَّوامع .

قلتُ : وأنكر أبو الفَرج هذه الرّواية جدًّا ؛ فإن الذى فعل هذا الفِعْلَ النُّعمانُ الأكبر جَدُّ النُّعمان الأصغر ، وعدىٌّ لم يدرك الأكبر ، وقد ذكره عدىٌّ فى شعره الذى خاطب به النُّعمان لمّا حَبسه .

حديث خالد عن تنصر النعمان

ثم أَورد أبو الفرج حِكَايةً تَشهد بصحّة قوله و بُطْلان رواية الـكَلبىّ ، وهى : حَكَى خَالدُ بن صَفْوان بن الأَهْتَمِ قال :

أَوْفدنى يوسفُ بنُ عُمر إلى هشام بنِ عبد الملك فى وَفْد أهل العِراق . قال : فقدمتُ عليـه وقد خَرج بِقَرَابته وحَشَمه وغاشيتِه[2] وجُلَسائه ، فنزل فى أرضٍ قاعٍ صَحْصَحٍ[3] مُنيفٍ أَفيحَ[4] ، فى عامٍ قد بَكَّر وسْمِيُّه[5] ، وتتابع وَلِيُّه[6] ،

(١) الفدم : ما يوضع فى فم الإبريق لتصفية ما فيه من الشراب ؛ الواحد : فدام ، بفتح الفاء وكسرها . وتردى : تعدو وترجم الأرض بحوافرها .
(٢) غاشية الرجل : من ينتابه من زواره وأصدقائه .
(٣) الصحصح : الأرض الجرداء المستوية ذات حصى صغير .
(٤) الأفيح : الواسع .
(٥) الوسمى : مطر الربيع الأول .
(٦) الولى : المطر الذى يلى الوسمى .

وأخذت الأرضُ فيه زينتَها على اختلاف ألوان نَبْتها ، من نَوْر رَبيع مُونِق ، فهو فى أحسنِ مَنظر ومَخْبَرٍ ومُسْتَمْطر ، بِصَعِيدٍ كأنّ تُرابه قِطَع الكافور ، ضُرِب له سُرَادق من حِبَرةٍ[1] كان يوسفُ بن عُمر صنعه له باليمن ، فيه فُسطاط فيه أربعةُ أَفْرِشَة من خَزٍّ أحمرَ مثلُها مرافقُها ، وعليه دُرَّاعة من خزٍّ أحمرَ مثلُها عِمامتُها . وقد أخذ الناسُ مجالسَهم .

قال : فأخرجتُ رأسى من ناحية السِّماط[2] ، فنَظر إلىَّ شِبْهَ المُسْتنطِق لى . فقلتُ : أَتمَّ الله عليك يا أميرَ المؤمنين نِعَمه ، وجَعَل ما قلَّدك من هـذا الأمر رُشْداً ، وعاقبةَ ما تؤُول إليه حَمْداً ، وأخلصَه لك بالتُّقى ، وكثَّره لك بالنَّماء ، ولا كدَّر عليك منه ما صَفا ، ولا خالط سُرورَه بالرَّدَى ؛ فلقد أصبحتَ للمُؤمنين ثِقَةً ومُسْتَراحا ، إليك يَقْصِدون فى مَظَالمِهم ، ويفزعون فى أُمورهم . وما أجد شيئاً يا أميرَ المؤمنين هو أَبلغُ فى قضاء حَقِّك ، وتَوْقير مَجلسك ، وما مَنَّ الله عزّ وجلّ علىّ به من مُجالستك ، من أن أُذَكِّرك نِعَمَ الله عليك ، وأُنَبِّهك لشكرها . وما أَجِد فى ذلك شيئاً هو أَبلغُ من حديث مَن سَلَفَ قبلك من المُلوك ؛ فإنْ أَذن أمير المؤمنين أَخبرتُه به .

قال : فاستوى جالساً ، وكان مُتَّكِئاً ، وقال : هَاتِ يا بن الأَهتم . قال : قلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ مَلِكاً من المُلوك قبلك خَرج فى عامٍ مثلِ عامك هذا إلى الخَوَرْنق[3] والسَّدير[4] ، فى عامٍ قد بَكَّر وسْمِيُّه ، وتَتابع وليُّه ، وأَخذت الأرضُ فيه زِينَتها على اختلاف ألوان نَبْتها ، فى ربيع مُونِق ، فهو فى أبهج مَنظر وأحسن مَخبر ، بصَعيد كأنّ تُرابَه قِطَعُ الكافور ، وقد كان أُعطى فَتاءَ السنّ

(١) الحبرة : ضرب من نسيج اليمن فيه نقط سود .
(٢) السماط : جمع سمط ، أو هو الصف من الناس وغيرهم .
(٣) سيأتى حديث الخورنق . (ص ٢١١) من هذا الجزء .
(٤) السدير : نهر بالحيرة . وقيل : قصر فى الحيرة من منازل آل المنذر .

مع الكثرة والغَلبة والقَهْر ، فأَبعد النَّظَر ثم قال لجلسائه : لمن مثلُ هذا ؟ وهل رأيتم مثلَ ما أنا فيه ؟ أو هل أُعطى أحدٌ مثلَ ما أُعْطِيتُ . قال : وعنده رجلٌ من بقايا حَمَلة الحُجَّة ، والمُضىّ على أدب الحقّ ومِنهاجه ـ قال: ولم تَخْلُ الأرضُ من قائم لله عزّ وجلّ بحُجَّةٍ فى عباده ـ فقال : أيها الملك : إنّك سألتَ عن أمرٍ ، أفتأذنُ لى فى الجواب عنه ؟ قال : نعم . قال : أرأيتَ هذا الذى أنتَ فيه ؟ أشىءٌ لم تزلَ فيه ، أم صار إليك ميراثاً وهو زائلٌ عنكَ وصائرٌ إلى غيرك كما صار إليك؟ قال : كذلك هو . قال : فلا أراكَ أُعجبت إلّا بشىءٍ[1] يسيرٍ تكون فيه قليلاً وتَغيب عنه طويلا ، وتكون غداً بحسابه مُرْتهناً . قال : ويحك ! فأيْن المَهربُ وأين المطلب ؟ قال: إمَّا أن تُقيم فى ملكك فتعملَ بطاعة رَبِّك على ماساءك وسَرَّك، وأَمَضّك [2] وأَرْمَضَك[3]؛ وإمَّا أن تَضَعَ تاجك ، وتَخلع أطمارك ، وتَلْبس أَمْسَاحك، وَتعبد رَبَّك حتى يَأتيك أجلُك . قال: فإذا كان السَّحر فاقْرَعْ علىَّ بابى فإنى مختارٌ أَحَدالرأيين ، فإن أُخترتُ ماأنا فيه كُنتَ وزيراً لا يُعْصَى ، وإن اخترتُ فَلَواتِ الأرض وقَفْرَ البلاد كنتَ رفيقاً لا تُخَالَف . قال : فقَرَع عليه عند السَّحَر ، فإذا هو قد وضع تاجه ووضع أَطْمَاره ولَبِس أمْسَاحه وتهيأ للسِّيَاحة . فلَزِمَا والله الجَبَلَ حتى أتاهما الأَجل . فهو حيثُ يقول عَدىّ بن زيد أخو بنى تَميم :

أَيُّها الشَّامتُ المُعيِّر بالدَّهْـ ـر أأنت المُبرَّأ الموفُورُ
أم لديكَ العَهْدُ الوثيقُ من الأيَّـ ـام بل أنتَ جاهلٌ مَغرور
مَن رأيتَ المَنُونَ أَبْقين أم مَنْ ذا عليه من أن يُضَام خَفير
أين كِسْرى كسرى الملوك أَنُوشِرْ وانُ أم أين قبلَه سابُور

(١) عجب وأعجب، بمعنى ، يقالان فى الاستحسان . وقيل: أعجب ، فى الاستحسان ؛ وتعجب ، فى الإنكار .
(٢) أمضك : شق عليك .
(٣) أرمضك : أوجعك .

وأخو الخَضْر إذ بَناه وإذ دِجْـ ـلَةُ تُجْبَى إليه[1] والخابُور
شَاده مَرْمَرًا وجَلَّله كِلْـ ـسًا فللطَّيرِ فى ذُراه وُكُور
لم يَهَبْه رَيْبُ المَنُون فبَادا ْ مُلك عنه فبابُه مَهْجُور
وَتَذَكَّر ربَّ الخَوَرْنق إذا أَشْـ ـرَفَ يوماً وللهُدَى تَذكير
سَرّه مالُه وكَثْرَةُ ما يَمْـ ـلكُ والبَحْرُ مُعْرِضاً[2] والسَّدير
فارْعَوى قلبُه وقال وما غِبْـ ـطةُ حَيّ إلى الممات يَصير
ثم بعد الفلاح والمُلكِ والإمَّـ ـةِ[3] وارتْهُم هناك القُبور
ثم صارُوا كأنهم وَرَقٌ جفَّـ ـ فأَلْوَتْ به الصَّبا[4] والدَّبُور

قال: فبكى والله هشامٌ حتى اخضلَّت لحيته وبُلَّت عمامته، وأمر بنَزْع أبنيته، وانتقال قَرابتـه وأهله وغاشيته من جُلسائه، ولَزِم قَصْرَه. فأقبلت الموالى والحَشَم على خالد بن صَفْوان وقالوا: ماأردتْ إلى أمير المؤمنين! أفسدت عليه لذّته ونَغَصْتَ عليه مأدُبتَه[5]! فقال: إليكم عنِّى، فإنى عاهدتُ الله عز وجلّ ألاّ أخلو بملك إلاّ ذكَّرته الله جلّ وعزّ.

خبر الخضر

ثم ذكر أبو الفَرج خَبَرَ الخَضْر وصاحبه، وخبر الخورنق وصاحبه، لجريان ذكرها فى هذا الشعر.

فأما ذكر الخضر وصاحبه

فقد ذُكر أن الخضر كان قصْراً بجَبال تَكْريت، بين دِجْلة والفُرات. وصاحبه الذى ذكره عدىّ بن زيد هو الضَّيْزَنُ بن مُعاوية بن العَبيد بن الأجرام بن عمرو ابن النَّخَع بن سَليح، من بنى تَزيدَ بن حُلْوان بن عِمْران بن الحاف بن قُضاعة. وأُمه جَيْهَلة[6] امرأةٌ من بنى يزيد بن حُلْوان، أخى سَليح بن حُلْوان، وكان لا يُعرف إلا بأُمه هذه، وكان مَلِك تلك الناحية وسائرِ أرض الجزيرة، وكان معه من بنى الأَجرام وسائر

(١) الخابور: نهر بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة.
(٢) معرضا: أى متسعا. (٣) الإمة: النعمة. (٤) ألوت به: ذهبت به.
(٥) فى بعض أصول الأغانى: «جبهلة». (٦) فى الأصل. «باديته»

قبائِل قُضاعةَ مالا يحُصى، وكان مُلْكه قد بَلغ الشّأمَ . فأغار الضَّيْزنُ فأصاب أُخْتاً لسابور ذى الأكتاف[1]، وفَتح مدينة نهرشير وفَتك فيهم .

ثم إن سابور ذا الأكتاف جَمع لهم وسار إليهم ، فأقام على الحَضْر أربع سنين لا يَستغل منهم شيئاً . ثم إن النَّضيرة بنت الضَّيْزن عَرَكَتْ ـ أى حاضت ـ فأُخْرِجَت إلى الرَّبَض[2] . وكانت من أجمل أهل دَهرها ، وكذلك كانوا يَفعلون بنسائهم إذا حِضْنَ . وكان سابور من أجمل أهل زمانه، فرآها ورأته وعَشِقها وعَشِقَتْه . فأرسلتْ إليه : ما تَجعل لى إن دللْتُك على ما تهدمُ به هذه المدينةَ وتقتُل أبى ؟ قال : أُحَكِّمُكِ وأرفَعُك على نِسائى وأخُصُّكِ بنفسى دونهنَّ . قالت : عليك بحمامةٍ مطوَّقةٍ وَرْقاء فاكتُب فى رِجلها بِحَيض جَارية بِكرٍ تكون زرقاء ، ثم أرسلْها فإنها تَقع على حائط المدينة ، فتتداعَى المدينةُ . وكان ذلك طِلِّسْمَها لا يَهْدمها إلاّ هو . ففعل وتأهَّب لهم، وقالت له: أنا أسْقِى الحَرسَ الخمر، فإذا صُرعوا فاقتلْهم وادخُل المدينة . ففعل وتداعت المدينةُ ، وفتحها سابور عَنْوةً ، وقَتل الضَّيْزَنَ وأباد بَنى العَبيد ، وأفْنى قُضاعةَ الذين كانوا مع الضَّيْزَن ، ولم يَبْقَ منهم باقٍ إلى اليَوْم يُعرف، وأُصيبت [قبائل] حُلْوَان ، وانقرضوا ودَرَجُوا . وأَخْرَب سابورُ المدينـــةَ واحتمل النَّضيرةَ بنت الضَّيْزَن ، وأعرس بها بِعَيْن التمر[3] . فلم تزل ليلتها تتصوّر من خُشُونة فى فُرُشِها ، وهى من حَرير مَحْشُوّة بالقَزّ . فالتَمسَ ما كان يُؤذيها ، فإذا هى ورقةُ آسٍ ملتصقةٌ بُعُكْنةٍ من عُكَنها ، قد أثَّرَتْ فيها . قال : وكان يُنظر إلى مُخِّها من لين بَشَرتها . فقال لها سابور : ويْحكِ ! بأىّ شىء كان أبوكِ يَغْذُوك ؟ قالت : بالزُّبْدِ والمُخِّ

---

(١) ذكر ياقوت فى معجم البلدان فى رسم « الحضر » أن صاحب القصة إنما هو سابور ابن أردشير ، لا سابور ذو الأكتاف ، وهو سابور ابن هرمز . وقال : « إنما ذكرت ذلك لأن بعضهم يغلط ويروى أنه ذو الأكتاف » . وسيشير إلى ذلك ابن واصل صاحب التجريد فى نهاية القصة (ص ٢١) نقلا عن الطبرى من هذا الجزء » .

(٢) الربض : ما حول المدينة من خارج .

(٣) عين التمر : بلدة قريبة من الأنبار غربى الكوفة .

وشُهْدِ الأبكار من النَّحل وصَفْوَة الخمر. فقال: وأبيكِ، لأنا أقربُ عهداً بمعرفتك، وآثَرُ لك من أبيك الذى غَذَّاك بما تذكرين! ثم أمر رجلاً فركب فرساً جَمُوحاً وضَفَر غدائرها بذَنبه، ثم استركضه فقطّعها قِطَعاً.

قلت: الذى ذكره أبو جَعفر الطبرىّ فى تاريخه: إن صاحب هـذه الواقعة هو سابور بن أردشير بن بابك، وهو جدّ سابور ذى الأكتاف.

خبر الخورنق

وأما خبر الخورنق وصاحبه:

فإنه ذُكر أنّ النُّعمان الأكبر — وهو ابن امرئ القيس، الذى تقدّم نَسبُه فى ذكر نَسب النُّعمان الأصغر. وأمه الشَّقيقة وبها يُعرف — بنى الخَوَرْنق. وسَبب بنائه له أن يَزْدَجِرْد بن سابُور كان لا يَبْقى له ولد، فَسَأَل عن مَنزل صَحيح من الأدْواء والأسقام، فدُلَّ على ظَهْر الحِيرة، فدفع ابنه بَهْرام جور بن يَزْدَجِرد إلى النُّعمان بن الشَّقيقة، وكان عامله على أرض العرب، وأمره أن يَبْنى الخَوَرْنق مَسْكَناً له ولابنه ويُنزله إيّاه معه، وأمره بإخراجه إلى بَوَادِى العرب. وكان الذى بَنى الخورنق رجلاً يُقال له «سِنِمَّار». فلما فَرغوا من بنائه عَجِبوا من حُسنه وإتقان عَمله. فقال: لو علمتُ أنكم تُوفُونى أَجْرى وتَصْنعون بى ما أستحقُّه لَبَنَيْتُه بناءً يدُور مع الشمس حيثما دارت. فقالوا: وإنك لتَبْنى ما هو أفضل منه ولم تَبنه! ثم أمر به فطُرِح من رأس الجَوْسق[1].

وفى رواية: إنه قال: أنا أَعرِفُ فى هذا القصر موضعَ عَيْب إذا هُدِم تَداعى القصرُ أجمعُ. فقال له: أمَا والله لا تدلّ عليه أحداً أبداً! ثم رُمى به من أعلى القَصْر. فقالت الشُّعراء فى ذلك أشعاراً كثيرة، منها قولُ أبى الطَّمَحان القَيْنىّ:

جَزَاءَ سِنِمَّارٍ جَزَوْها وربِّها ... وباللَّاتِ والعُزَّى جَزاءَ المُكَفَّر

(١) الجوسق: القصر.

وقال عبدُ العُزَّى بن أُمرئ القيس الكَلْبىّ :

جَـــزانِى جَزاه الله شَرَّ جَـــزائه ... جَزاءَ سِـنّار وما كان ذا ذَنْبِ
سوى رَصِّه البُنْيانَ عِشرين حِجَّـةً ... يُعَلِّى عليه بالقَراميـدِ[1] والسَّـكْب

وعلا أَمْرُ النُّعمان الأكبرُ هذا . وأعطاه يَزْدَجرد كَتيبتين عظيمتين، إحداهما من تَنُوخ : وتُسَمَّى دَوْسَر . والأُخرى من الفُرْس ، وتُسمَّى الشَّهْباء . كان يغزو بهما بلادَ الشَّـأم ، وكُلَّ مَنْ لم يَدِنْ له من العرب . فجلس يوماً يُشْرِف من الخَوَرْنق ،فأَعجبه ما رأى من مُلكه . ثم جَرى له بعد ذلك ما تقدم ذكره فى خَبر خالد بن صَفْوان .

رجع الحديث

إلى بقية أخبار عدىّ بن زيد العبادى

حبسه وشعره الى النعمان

ولمّا حَبس النُّعمانُ الأصغر بن المُنذر عدىَّ بن زيد وطال حَبْسه ، جَعل يقول الشعر . فممّا قاله قصيدته التى تقدّم ذِكْرُها فى خبر خالد . ومن ذلك قوله :

ليتَ شِـعْرى عن الهُمام ويَـأْتيـ ... ـك بخُـبْرِ الأَبناء عطفُ السُّؤالِ
أين عَنَّا إخطارُنا المـالَ والأَنْـ ... ـفُسَ إذ ناهَدُوا لِيومِ[2] المِحَال
ونِضَالِى فى جَنْبكَ النـاس يرمُو ... ن وأَرْمى وكُلُّنا غيرُ[3] آلِ
فأُصيبُ الذى تُريد بلا غِـــشّ ... وأُرْبِى عليهـمُ وأُوالى

ومنها قوله فى قصيدة طويلة :

أَبلغِ النُّعْمانَ عَنِّى مَأْلُـكاً[4] ... أَنَّه قد طال حَبْسى وانتظـارى

---

(١) القراميد : جمع قرمد ، وهو الآجر . والسكب : النحاس أو الرصاص .
(٢) إخطار المال والنفس : بذلها وجعلها خطراً . وناهدوا : ناهضوا . والمحال : الكيد أو المكر .
(٣) غير آلى : غير مقصر . (٤) المألك ، بفتح اللام وضمها : الرسالة.

لو بغـــير المـاء حَلْقِى شَرِقٌ كنت كالغَصَّان بالماء(١) أعتصارى

فى قصائدَ كثيرة كان يقولها و يكْتُب بها إليه ، فلا تُغْنى عنه شيئا .

ومما قاله فى الحَبْس :

ليسَ شىءٌ على المَنُـونِ بباقى غيرُ وجـــه المُسبَّح الخَلّاقِ
إن نَـكُن آمنـين فاجأنا شَـــرٌّ مُصيبٌ ذا الوُدّ والإشـفاق
فبرىءٌ صـدرى من الظُّلْمِ للرّ بّ وحِنْثٍ بِمُعْقَدَ(٢) المِيثاق
ولقـد سـاءنى زيارةُ ذى قُرْ بَى حبيبٍ لودّنا مُشـــتاق
سـاءه ما بِنا تَبَيَّنَّ فى الأَيْ دى و إشناقها(٣) إلى الأعنـاق
فاذْهِبى يا أُمَيم(٤) غـير بَعيـد لا يُؤَاتى العِنَاقُ مَنْ فى الوَثَاق
واذْهَبى يا أُمَيم(٤) إن يشأ اللـ ـهُ يُنفِّس مِن أَزْمِ(٥) هذا الخناق
أوتكن(٦) وجْهةٌ فتلكَ سبيلُ النَّـــاس لا تَمْنع الحُتوفَ الرَّواقى

ومنهـــا :

ياأبا مُسْهِرٍ فأَبْلِغ رسـولاً إخوتى إن أتيتَ صَحْنَ العِراق
أبلغًا عامـــراً وأبلغ أخاه أَنَّنى مُوثَقٌ شـديدٌ وَثاقى
فى حديد القِسْطاس(٧) يرقُبنى الحا رسُ والمرء كلَّ شىء يُلاقى
فاركَبُوا فى الحَرام فُكُّوا أخاكم إنّ عِيراً قد جُهِّزَتْ لانْطلاق

يعنى «بالحرام» : الشهر الحرام .

شعره إلى أخيه وسعى أخيه لإطلاقه وحديث ذلك

وكتب أيضاً إلى أخيه أُبَىّ بن زيد ، وهو عند كسرى أَبْرويز :

أَبلغْ أُبَيًّا على نأْيِهِ وهل يَنفع المرءَ ما قد عَلِمْ

(١) الاعتصار : أن يغص الإنسان بالطعام فيعتصر بالماء، وهو أن يشربه قليلا قليلا ليسيغه.
(٢) معقد الميثاق : أوكده .
(٣) الإشناق : أن تغل اليد إلى العنق . والذى فى الأصل : «وإياقها».
(٤) فى الأصل: «ياأمى». (٥) الأزم – الشدة . (٦) فى الأصل : «إن» .
(٧) حديد القسطاس ، أى حديد القبان. عن ابن منظور .

بأنّ أخاك شـقيقَ الفـؤا دِ كُنتَ به واثقاً[1] ما سَلِمْ
لدى مَلِكٍ مُوثَقٌ فى الحـديـ ـد إمّا[2] بحقٍّ وإمّا ظُلِمْ
فأرضَك أرضَك إن تَأتِنا تَنَم نومةً ليس فيها حُلُم

فلما قرأ أُبَيٌّ كتابَ عدىّ قام إلى كِسْرى فكلّمه فى أمره وعَرّفه خبرَه. فكتب إلى النُّعمان يأمره بإطلاقه. وبَعث معه رجلاً، وكتب خليفةُ النُّعمانِ إليه: [إنه] قد كُتِب إليك فى أمره. وأتى النُّعمانَ أعداء عدىّ، فقالوا له: اُقتُلْه الساعةَ. فأبى عليهم. وجاء الرسولُ، وقد كان أخو عدىّ رشَا الرسولَ وتقدّم إليه أن يبدأ بعدىّ فيدخلَ عليه وهو محبوس، فقال له: ادخُل عليه وانظر ما يأمرك به فامتثِلْه. فدخل الرسولُ على عدىّ، فقال له: إنّى قد جئتُ بإرسالك، فما عندك؟ قال: عندى الذى تُحب، ووَعده عدةً سنيّة وقال له: لا تخرجَنّ من عندى، وأَعْطِنى الكتابَ حتى أرسلَه إليه، فإنك والله لئن خرجتَ لأُقتلنّ. فقال: لا أستطيع إلّا أن آتىَ الملك بالكتاب فأُوصِلَه إليه.

فانطلق بعضُ من كان هناك من أعدائه، فأَخبر النعمانَ أن رسول كِسرى دخل على عدىّ وهو ذاهبٌ به، وإن فعل والله لم يَسْتبقِ منّا أحداً: أنت ولا غَيرك. فبعث إليه النعمانُ أعداءه فغَمُّوه[3] حتى مات، ثم دَفنوه. ودخل الرسولُ إلى النُّعمان فأَوصل الكتابَ إليه. فقال: نعم وكرامةً، وأَمر له بأربعة آلاف مِثقال ذهباً وجارية حسناء، وقال له: إذا أَصبحتَ فادخُل أنت بنفسك فأَخْرِجْه. فلمّا أَصْبح رَكب فدخل السجن. فأَعلمه الحرسُ أنه قد مات منذ أيام، ولم نَجترىء على إخبار الملك خوفاً منه، فقد علمنا كراهَته لموته. فرجع إلى النُّعمان، فقال: إنّى كنتُ دخلتُ أمسِ على عدىّ وهو حىّ، وجئت اليوم فجَحَدَنى السَّجّان وبَهَتنى[4] وذكر أنّه

(١) فى الأصل: «والها».
(٢) فى الأصل: «لحق» مكان «بحق».
(٣) غموه: أى غطوا وجهه.
(٤) بهته: قابله بالكذب.

قد مات منذ أيام .فقال له النُّعمان:أيبعثُ بك الملك إلىّ فتدخلَ إليه قَبلى! كذبت! ولـكنك أردتَ الرّشوة والخُبثَ ، وتَهدَّده . ثم زاده جائزةً وأكرمه ، وتوثَّق منه ألّا يُخبِر كسرى إلّا أنه قد مات قبل أن يَقْدَم عليه . فرجع الرسولُ إلى كسرى وقال: إنى وجدتُ عديًّا قد مات قبل أن أدخل عليه. ونَدم النعمانُ على قَتْل عدىّ ، وعرَف أنه أُحتيل عليه فى أسره ، واجتَرأ أعداؤه عليه وهلبهم هَيْبَةً شديدة .

ابن عدى يكتب للنعمان

ثم إنه خَرج الى الصيد ذاتَ يوم: فلقى ابناً لعدىّ يقال له : زَيد . فلمّا رآه عَرف شَبهَه فقال له : مَن أنت ؟ قال: أنا زَيد بن عدىّ . فكلَّمه ،فإذا غلامٌ ظريف ، ففرح به فرحاً شديداً وقرَّبه وأعطاه ووَصله ، واعتذر إليه من أمر أبيه وجهَّزه . ثم كَتب إلى كسرى : إن عديًّا كان ممن أُعِينَ به الملكُ فى نُصحه ولُبِّه ، فأصابه مالا بُد منه ، وانقطعت مُدَّته وانقضى أَجلُه ، ولم يُصَبْ به أحدٌ أشدّ من مُصيبتى ؛ وأمّا الملكُ فلم يكن لِيَفقِد رجلاً إلّا جعل الله له منه خَلَفاً ، لِمَا عَظَّم الله من مُلكه وشأنه . وقد بَلغ ابنٌ له ليس بدونه ،رأيته يصلُح لِخدمة الملك فسَرَّحتُه إليه . فإن رأى الملك أن يَجعله مكانَ أبيه فَلْيَفْعل ، وليصرف عَمَّه عن ذلك إلى عَمل آخر .

فكان هوالذى يَلى المُكاتبةَ عن الملك إلى ملوك العَرب فى أُمورها وفى خواصّ أُمور الملك . وكانت له وظيفةٌ مُوَظَّفة فى كل سنة : مُهْرانِ أشقران ، والكَمْأَة الرَّطبة فى حِينها،واليابسةُ والأقِطُ ، وسائر تجارات العرب. وكان زيد بن عدى يلى ذلك له . وكان هذا عملَ عدىّ .

فلما وقع زيد بن عدىّ عند الملك هـذا الموقَع ، سأله كسرى عن النُّعمان، فأَحسن الثناء عليه . ومَكث على ذلك سَنواتٍ على الأَمر الذى كان أبوه عليه، وأُعجب به كسرى . وكان يُكثر الدخولَ عليه والخدمةَ له .

كيد زيد للنعمان عند كسرى

وكانت لملوك العَجم صفةٌ من النِّساء مكتوبةٌ عندهم ، وكانوا يَبعثون فى تلك الأَرَضين بتلك الصِّفة ، فإذا وُجدت حُملت إلى الملك ، غيرَ أنهم لم يكونوا يطلبونها فى أرض العرب .فأمر فكُتب بها إلى النواحى . ودَخل إليه زيد بن

عدىّ وهو فى ذلك القول ، فخاطبه فيما دَخل إليه فيه ، ثم قال : إنى رأيتُ الملك كتب فى نِسوة يُطْلَبْن له ، وقرأت الصفةَ ، وكنتُ بآل المُنذر عارفاً ، وعند عبدك النُّعمان من بناته وأخواته و بنات عمِّه أكثرُ من عشرين امرأةً على هذه الصفة . قال : فاكتُب فيهنّ . قال : أيها الملك، إن شرَّ شىء فى العَرب وفى النُّعمان خاصَّةً أنهم يتكرّمون — زَعَمُوا فى أنفسهم — عن العجم ، فأنا أكره أن يُغَيِّبهن عمَّن تبعث إليه ، أو يَعْرض عليه غيرَهنّ ، و إن قَدِمتُ أنا عليه لم يَقْدر على ذلك . فابْعثنى وابعثْ معى رجلًا من ثِقاتك يفهم العربيةَ حتى أبلغَ ما تُحبه . فبعث معه رجلا فَهِماً . فخرج به زيد ، فجعل يُكرم الرّجلَ و يُلْطِفه ، حتى بلغ الحيرةَ . فلما دخل عليه أعظم الملكَ ، وقال : إنه قد احتاج إلى نساء لنفسه وولده وأهل بيته ، وأراد كرامَتك بصِهْره [فبعث إليك]. فقال : ماهؤلاء النِّسوة ؟ فقال : هذه صفتهن قد جِئْنا بها .

وكانت الصِّفَةُ أن المُنذر الأكبر أهدى إلى أنُوشِرْوانَ جاريةً كان أصابها إذ أغار على الحارث الأكبر بن أبى شَمِر الغَسَّانى . وكتب إلى أنو شروان بصفتها . وقال : إنّى قد وَجهتُ إلى الملك جاريةً معتدلة الخَلق ، نقيةَ اللَّونِ والثَّغر، بيضاء قَمْراء ، وطْفاء[1] كَحْلاءَ ، دَعْجَاء[2] حَوْراء ،عَيْنَاءَ قَنْواء[3]، شَمَّاء[4] بَرْجَاء[5] زَجَّاء[6]، أَسِيلَةَ الخدِّ ، شَهِيَّةَ المُقبَّل ، جَثْلةَ[7] الشَّعَر ، عظيمة

(١) وطفاء : غزيرة الأهداب وشعر الحاجبين .

(٢) دعجاء : شديدة سواد العين ، شديدة بياضها .

(٣) قنواء : مرتفعة أعلى الأنف مع احديداب فى وسطه وسبوغ فى طرفه .

(٤) شماء : مرتفعة قصبة الأنف فى حسن .

(٥) برجاء : جميلة حسنة الوجه .

(٦) زجاء : دقيقة الحاجبين فى طول .

(٧) جثلة الشعر : كثيفته سوداؤه .

الهامة ، بعيدة مَهْوى القُرط ، غَيْطاء[١] ، عَريضةَ الصَّدْر ، كاعبَ الثَّدى ، ضخمة مُشاش المَنْكِب والعَضُد ، حسنةَ المِعْصم ، لطيفة الكفّ ، سَبْطه البَنان ، ضامِرَة البَطْن ، خميصةَ الخصر ، غَرْثى[٢] الوِشاح ، رَداح[٣] الأقبال[٤] ، رابيةَ الكَفل ، لفّاء الفَخذين[٥] ، ريَّا الرَّوادف ، ضَخمة المأْكِمَتين[٦] ، مُفْعمة[٧] الساق ، مُشْبعة[٨] الخَلخال ، لطيفةَ الكَعب والقدم ، قَطُوف المشى[٩] ، مِكْسالَ الضُّحى[١٠] ، بَضَّةَ المتجرد[١١] ، سَمُوعاً للسيّد ، ليست بخَنْساء[١٢] ولاسَفْعاء[١٣] ، رقيقة الأنف ، عَزيزة النَّفس ، لم تُغَذَّ فى بُؤْسٍ ، حيِيَّةَ رَزينةً ، حليمةً ركينة ، كريمة الخال ، تقتصر على نَسَبِ أبيها دون فَصيلتها ، وتَستغنى بفَصيلتها دون جِماع قبيلتها ، قد أَحكمتْها الأُمور فى الأدب ، فرأيها رأى أهل الشَّرف ، وعملُها عملُ أهل الحاجة ، صَناعَ الكَفَّين ، قَطيعة اللسان[١٤] ، رَهْوة الصَّوت[١٥] ،ساكنته ، تَزينُ الوَلِيَّ[١٦] ، وتَشِين العدوّ ،إن أردتَها اُشْتَهَتْ ، وإنْ تركْتها اُنتهتْ ، تُحَمْلِقُ

---

(١) غيطاء : طويلة العنق .
(٢) غرثى الوشاح : دقيقة الخصر .
(٣) رداح : عجزاء ثقيلة الأوراك تامة الخلق .
(٤) الأقبال : ما استقبلك .
(٥) لفاء الفخذين : ضخمتهما .
(٦) المأكمتان : اللحمتان اللتان على رءوس الوركين .
(٧) مفعمة : ممتلئة .
(٨) مشبعة الخلخال : كناية عن السمن .
(٩) قطوف المشى : متقاربة الخطو .
(١٠) مكسال الضحى : أى لا تكاد تبرح مجلسها .
(١١) المتجرد : أى الجسم . والبضة : الناعمة .
(١٢) خنساء : لاحقة القصبة بالوجه ضخمة الأرنبة .
(١٣) سفعاء : سوداء .
(١٤) قطيعة اللسان : غير سليطة .
(١٥) رهوة الصوت : رقيقة سهلة . (١٦) فى الأصل : « المولى » .

عيناها[1] ،وتحمرُّ وَجْنتاها ، وتَذَبْذبُ شَفَتاها ،وتُبادرك الوثبةَ إذا قُمتَ ، ولا تجلسُ إلّا بأمرك إذا جلستَ .

قال:فَقبلها أنو شِروانُ وأمر بإثبات هذه الصِّفَة فى دواوينه . فلم يزالوا يتوارثونها حتى أفضى ذلك إلى كسرى أبرويز بن هُرْمز . فقرأ زيدُ بن عدى هذه الصفةَ على النُّعمان ، فشَقّت عليه ، وقال لزيد ، والرَّسولُ يسمع : أمَا فى مَهَا السَّواد وعِين فارسَ ما يبلغُ به كسرى حاجَته ؟ فقال الرّسولُ لزيد بالفارسية : ما المَها والعِين ؟ فقال له بالفارسيّة : كاوان ، أى البقر . فأمسك الرسول .

وقال زيدٌ للنُّعمان : إنما أراد الملكُ كرامتَك ، ولو يعلم أنّ هذا يشُقُّ عليك لم يكتُب إليكَ به . فأنزلها يومين عنده ، ثم كَتب إلى كِسْرى : إنّ الذى طَلب كِسرى ليس عندى . وقال لزيد : أعْذُرْنى عند الملك .

فلمَّا رَجَعا إلى كِسْرى قال زيدٌ للرسول الذى قدِم معه : اصدُق الملك عمّا سمعتَ ، فإنى سأحدّثه بمثل حديثك ولا أخالفك فيه . فلما دخلا على كسرى ، قال زيد : هذا كتابُه [إليك]. فقرأه عليه .فقال له كسرى : وأين الذى كنتَ خَبَّرتنى به ؟ قال : قد كنتُ خَبَّرتُك بضِنّتهم بنسائهم على غيرهم ؛ وإن ذلك من شقائهم واختيارهم الجُوعَ والعُرْىَ على الشِّبَع والرِّياش ، وإيثارهم السَّمُوم والرِّياحَ على طيبِ أرضكَ هذه ، حتى إنهم ليُسمُّونها السِّجنَ . فسلْ هذا الرسولَ الذى كان معى عمّا قال ، فإنى أُكرم الملك عن مُشافهته بما قال وأجاب به . قال للرسول :وما قال ؟فقال له الرسولُ : [أيها الملك]،إنه قال:أما فى بَقر فارس والسَّواد ما يَكفيه عن طلب ما عندنا . فعُرف الغضبُ فى وجهه ، ووَقع فى قَلْبه منه ما وَقَع ، ولم يزِد على أن قال : رُبَّ عَبْدٍ قد أراد ما هو أشدُّ من هذا ، ثم صار أمرُه إلى التَّباب ! وشاع هذا الكلامُ حتى بلغ النُّعمانَ ، وسكتَ كِسْرى أشهُراً

(١) المحملق من الأعين: ماحول مقلتيها بياض لم يخالطه سواد .

على ذلك ، وجعل النعمانُ يَسْتَعِدُّ ويتوقّع ، حتى أتى إليه أمرُ كسرى : أن أقبل ، فإنَّ للملك حاجةً إليك .

استجارة النعمان بسادات العرب ثم تسليمه نفسه

فانطلق حين أتاه كتابُه . فحمل سلاحَه وماقَوِىَ عليه ، ثم لَحِق بجبلَىْ طيئ . وكانت فَرْعةُ[1] بنتُ سعد بن حارثة بن لأْم عنده ، وقد ولدتْ له رجلاً وامرأة . وكانت أيضاً عنده زينبُ بنتُ أوس بنِ حارثةَ . فأراد النعمانُ طَيِّئاً على أن يُدخلوه الجبلَيْن [ويمنعوه] ، فأبوا ذلك عليه وقالوا : لولا صِهْرُك لقتلناكَ ؛ فإنه لاحاجةَ بنا إلى مُعاداة كسرى ولا طاقةَ لنا به .

وأقبل يطوفُ على قبائل العرب ، ليس أحدٌ منهم يَقْبله ، غير أنَّ بنى رَوَاحَة ابن قُطَيعة بن عَبْسٍ قالوا : إن شئتَ قاتلنا معكَ ، لِمنَّة كانت له عندهم . فقال : ما أُحِبّ أن أُهْلِكَكم ، فإنه لا طَاقةَ لكم بكسرى . فأقْبل حتى نَزل بذِى قار[2] فى بَنى شَيْبان سِرًّا ، فلقِىَ هَانىء بن قَبيصَة — وقيل : بل هانىء بن مَسْعود [ابن عامر] بن عَمرو بن أبى ربيعةَ بن ذُهْل بن شَيبان ، وكان سيِّدا مَنيعاً ، والبيتُ يومئذٍ من رَبيعة فى آل ذى الجَدّين لِقَيْس بن مسعود بن قيس بن خالد ، ابن ذى الجَدَّين ، فأجاره هانىء وقال : قد لَزمنى ذِمامُك ، وأنا مانعُك ممّا أَمنعُ نَفسى وأهْلى وَوَلدى منه ، مابَقِى من عشيرتى الأَدْنينْ رَجُلٌ ، وإنّ ذلك غيرُ نافعكَ ، لأنه مُهْلكى ومُهلِكُكَ ، وعندى رأىٌ لستُ أُشير به لأَ دفعكَ عمّا تُريده من مُجاورتى ، ولكنّه الصوابُ . فقال : هاتِه . فقال : إنّ كُل أَمْرٍ يَجْمُل بالرَّجُل أن يكونَ عليه إلاّ أن يكون بعد المُلْك سُوقةً ، والموتُ نازلٌ بكل أحد ، ولأَنْ تَمُوتَ كريماً خيرٌ من أن تَتجرَّع الذلَّ أو تَبقى سُوقةً بعد المُلْك ؛ هذا إن بَقيتَ ، فأُمْضِ

(١) فى بعض أصول الأغانى : « قزعة » . وفى بعض آخر : « قرعة » .

(٢) ذو قار : ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط ، كانت فيه الوقعة المشهورة بين بكر بن وائل والفرس .

إلى صاحبك واحمل إليه هدايا ومالاً، وألْقِ نَفْسَك بين يديه ، فإمّا أن أصفح عنك فَعُدْتَ مَلِكاً عزيزاً ، وإمّا أنْ أصابك، فالموتُ خَيْرٌ من أن يتَلَعَّب بك صعاليكُ العرب ، ويتخطَّفك ذِئابُها ، وتأكلَ مالَكَ وتعيشَ فقيراً مُجاوِراً ، أو تُقتل مقهوراً. قال : فكيف بُحَرَمِي؟ قال : [هُنّ فى ذِمَّتى لا يُخلص إليهن حتى يُخلص إلى بناتى] . فقال : هـذا وأبيكَ الرأىُ الصحيحُ ، ولن أُجاوِزه . ثم اختار خَيْلاً وحُلَلاً من عَصْبِ[1] اليمن ، وجوهراً وطُرَفاً كانت عنده ، ووَجَّه بها إلى كسرى ، وكتب إليه يَعتذر ويُعْلِمه أنه صائرٌ إليه ، ووجَّه بها مع رسوله . فقبلها كِسْرى منه وأمره بالقُدوم . فعاد إليه الرسولُ وأخبره بذلك ، وأنه لم يَرَ عند كسرى سُوءًا. فمضى إليه ، حتى إذا وصل إلى ساباط[2]، لقِيه زيدُ بن عدىّ على قَنطرة سَاباط ، فقال له : انْجُ نُعَيْمُ إن اسْتطعتَ النَّجاة . فقال له : أفعلتَها يا زيدُ ! أمَا والله لئن عشتُ لأَقْتُلَنَّك قِتْلةً لم يَقْتلها عربىٌّ قَطُّ ، ولأُلحقتَّك بأَبيك !فقال له زَيد : اُمْض لشأنك نُعيم ، فلقد والله أَخَّيْتُ لك أُخَيَّةً[3] لا يَقْطعها المِهْرُ الأَرِنُ[4]. فلما بلغ كِسْرى أنَّه بالباب بَعث إليه فقيَّده ، وبعث به إلى سِجْنٍ كان له بخانِقين.[5] فلم يَزل فيه حتى وقع الطاعونُ هناك فمات فيه .

للأعشى فى موت النعمان

وقيل : بل مات بساباط فى حَبْسه . وفى ذلك يقول الأعشى :

فَذَاكَ وما أَنْجى من الموتِ ربَّه ... بساباطَ حتّى مات وهو مُحرزَقُ

(١) العصب : ضرب من برود اليمن يعصب غزله ، أى يجمع ويشد ، ثم يصبغ وينسج فيأتى موشيًا ، لبقاء ما عصب منه أبيض لم يأخذه صبغ .

(٢) ساباط : موضع بالمدائن لكسرى أبرويز .

(٣) الأخية : العود يعرض فى الحائط ويدفن طرفاه ويصير وسطه كالعروة تشد إليه الدابة . وقد تخفف الياء ، كما قد تمد الهمزة مع تشديد الياء أيضاً .

(٤) الأرن : النشيط .

(٥) خانقين : بلد بسواد بغداد .

والمحرزق : المُضيَّق عليه .

وغضبتْ له العربُ ، وكان قتلُه سببَ وقعة ذِى قار .

ما تمثل به النابغة حين بلغه موته

وقيل : إنه لما نُعى النعمانُ بن المنذر إلى النابغة الذُّبيانى وحُدِّثَ بما صَنع به كسرى قال : طَلبه من الدَّهْرِ طالِبُ المُلوك ، ثم تَمثَّل :

مَنْ[1] يَطْلُبِ الدهرُ تُدركه مَخالبُه ... والدَّهر بالوِتْرِ ناجٍ غيرُ مطلوبِ

مامنْ أُناس ذَوِى مجدٍ ومَكْرُمة ... إلاّ يَشُدُّ عليهم شَدَّةَ الذِّيب

حتى يُبيدَ على عَمْدٍ سَرَاتَهم ... بالنافذاتِ من النَّبْلِ المَصَايِيب

إنّى وجدتُ سِهامَ الموتِ مُعْرِضةً[2] ... بكلّ حَتْف من الآجالِ مكتوب

أبيات عدى التى فيها الغناء

والأبيات التى لعدىّ التى فيها الغناء ، وافتتح بها أبو الفرج أخباره ، هى :

* رُبَّ رَكْبٍ قد أناخوا عندنا[3] *

وقد ذكرتُ من شعره الذى تُغنِّى ، به وهو مشهور ، قوله :

يا لُبَيْنَى أَوْقِدى النَّارَا ... إنّ من تَهْوَيْنَ قد حارَا[4]

رُبَّ نارٍ بِتُّ أَرْمُقُها ... تَقْضِمُ الهِنْدِىَّ والغَارا[5]

عندها ظَبْىٌ يُؤَرِّثُها ... عاقدٌ فى الجِيد تِقْصارا[6]

---

(١) فى الأصل : «ما» .

(٢) مغرضة : مصيبة الغرض والهدف . وفى بعض أصول الأغانى : «معرضة» بالعين المهملة ، أى متعرضة .

(٣) فى الأصل : «حولنا» . وعجزه : * يشربون الخمر بالماء الزلال *

(٤) حار : ضل .

(٥) الغار : شجر طيب الريح .

(٦) يؤرثها : يوقدها ويكثر حطبها . والتقصار : المخنقة .

أخبار الحطيئة

نسبه

واسمه جَرْوَلُ بن أوس بن مالك بن جُؤَيَّةَ بن مَخْزوم بن مالِك بن غالب ابن قُطَيعةَ بن عَبْس بن بَغيض بن الرَّيْث بن غَطَفان بن سَعْد بن قَيْس بن عَيْلان ابن مُضَر بن نِزَار بن معدّ بن عَدْنان .

منزلته فى الشعر

وهو من فُحول الشُّعراء ومُتقدِّميهم ومن فُصحائهم ، مُتَصَرِّف فى جميع فنُون الشِّعر من المَديح والهجاء والفخر والنَّسيب ، مُجيدٌ فى ذلك أجمع .

شىء عنه

وكان ذا شَرٍّ وسَفَهٍ ، ونَسَبُهُ مُتَدافَعٌ بين قبائل [العرب] . كان يَنتمى إلى كل واحدةٍ منها إذا غَضِب على الأخرى .

إسلامه وارتداده وشعره فى ذلك

وهو مُخَضْرَمٌ ، أدرك الجاهلية والإسلام ، فأسلم ثم ارتدّ ، وقال فى ذلك :

أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننا ... فيالَعبادِ الله ما لِأَبى بَكرِ

أيُورِثُها بكراً إذا مات بعده ... وتلك لعمرُ الله قاصمةُ الظَّهر

سبب تلقيبه بالحطيئة

ويُكْنى الحطيئةُ أبا مُلَيكية . و إنما لُقِّب الحُطيئة لِقِصَره وقُربه من الأرض . وقيل : بل لأنه ضَرِط ضَرْطةً بين قوم ، فقيل له : ما هذا ؟ فقال : إنما هى حُطيئة[1] . فَسُمِّىَ الحُطيئةَ .

تردده فى نسبه

وذُكر أنه كان يدَّعى أنه ابنُ عمرو بن عَلْقَمَة ، أحد بنى [الحارث بن] سَدُوس . وتارةً كان يَنتمى إلى ذُهْل بن ثَعْلَبَةَ .

---

(١) حطيئة : تصغير : حطأة ، وهى فعلة ، من قولهم : حطأ ، إذا ضرط .

رأى ابن الكلبى

وذَكر ابنُ الكَلبيّ أنه كان مغمورَ النَّسب ، وأنّه من أولاد الزِّنا الذين شَرُفُوا .

شعره فى هجاء أمه

وتزَوَّج الكَلْبُ بن الكُنَيْس النَّهْشَلِيُّ أُمَّ الحُطيئة ، واسْمُها الضَّرَّاء ، فقال فيها الحطيئةُ يَهجوها :

تَنَحَّىْ فاجلِسِى منِّى بَعيـــداً ... أَراحَ اللهُ منكِ العَـــالَمِينَا
أَغِرْبالاً[1] إذا استُودِعْتِ سِرًّا ... وكانُونًا[2] على المُتَحَـــدِّثِينا
حياتُكِ ما عَلِمتُ حياةُ سَوْءٍ ... ومَوتُكِ قد يَسُرُّ الصـــالِحِينا

وسألها يَوْماً : من أبوه ؟ فخَلَطَتْ عليه فقال :

تقول لِىَ الضَّرَّاء لستَ لواحِـــدٍ ... ولا اثنين فانظُر كيف شِرْكُ أُولئكا
وأنتَ امرُؤٌ تَبغى أَبًا قد ضَلَلتَه ... هَبِلْتَ ألَمَّا تَستَفِق من ضَـلَالِكا

بعض طباعه

وكان جَشِعاً سَؤُولا مُلْحِفاً دَنِىء النَّفْس ، بخيـلاً ، قبيحَ المنظر ، رثَّ الهَيْئَة ، فَاسِدَ الدِّين ، كثيرَ الهجاء ، بذىء اللِّسان .

من ولعه بالهجاء

وذُكر أنّه التَمس يوماً إنساناً يهجوه فلم يجده ، وضاق عليه ذلكَ . فأنشأ يقول :

أَبَتْ شَفَتَاىَ اليومَ إلّا تَـكَلُّما ... بِشَرٍّ فمـا أَدْرى لمن أَنا قائِلُهْ

وجعل يُدَهْوِر هذا البيتَ فى أشداقِه ولا يَرى إنساناً ، إذ اطَّلع فى رَكِيٍّ[3] أو حَوْضٍ ، فرأى وجهَه ، فقال :

أَرى لِىَ وَجهاً قَبَّحَ[4] اللهُ خَلْقَه ... فَقُبِّحَ من وجْهٍ وقُبِّحَ حامِلُهْ

فى حفل لسعيد ابن العاص

وذُكر أنه بينا سَعيد بن العاص يُعَشِّى الناسَ بالمدينة ، والناس يَخرجون أولاً

(١) الغربال : النمام .
(٢) الكانون : الثقيل الوخم .
(٣) الركى : البئر .
(٤) فى بعض أصول الأغانى : « شوه » .

فأولا ، إذ نَظر على بساطه إلى رجل قبيح المَنظر ، رثّ الهيئة ، جالسٍ مع أصحاب سَمَره . فذَهب الشُّرَطُ يُقيمونه ، فأَبَى أن يقوم . وحانت من سَعِيدٍ التفاتةٌ ، فقال : دعُوا الرَّجُلَ . فتركوه وخاضوا فى أحاديث العرب وأشعارها مَلِيًّا . فقال لهم الحُطيئة : والله ما أصبتُم جَيِّدَ الشِّعر ولا شاعرَ العرب . فقال له سَعيد بن العاص : أفتعرفُ من ذلك شيئاً ؟ قال : نعم . قال : من أشعرُ العرب ؟ قال : الذى يقول :

لا أَعُدُّ الإِقْتار عُدْماً ولكن ... فَقْدُ من قد رُزِئْتُه الإعدامُ

وأنشدها حتى أَتَى على آخرها . فقال : مَنْ يقولها ؟قال : أبو دُوَاد الإيادىّ . قال : ثم مَن ؟ قال : الذى يقول :

أَدْرِكْ[1] بما شئتَ فقد يُدرَكُ بالـ ... ـجَهْل وقد يُخْدَعُ الأريبُ

ثم أَنشدها حتى فَرغ منها . قال : ومَن يقولها ؟ قال : عَبيد بن الأبرص . قال : ثم مَن ؟ قال : والله لحسبُك بى عند رَهْبة أو رغبة ، إذا رفعتُ إحدى رِجْلَىَّ على الأخرى ثم عويتُ عُواء الفَصِيل الصادى فى إثر القوافى . قال : ومَن أنت ؟ قال : الحُطيئة . فرَحَّب به سَعيد . ثم قال : أسأْتَ بكتماننا نَفْسَك مُنذ الليلة . ووَصله وكساه .

هووعتيبه بن النهاس

ومَضى لوجهه إلى عُتَيبة بن النَّهاس العِجْلىّ فسأله . فقال : ما أَنا على عَمَل فأُعطَيك من عَدَده ، ولا فى مالى فَضْلٌ عن قَومى . قال له : فلا عليك ، وانصرف. فقال له بَعْضُ قومه : لقد عَرَّضتنا ونفسك للشّر ! قال :وكيف؟ قالُوا : هذا الحطيئةُ وهو هاجينا أَخْبَثَ هجاء . فقال :رُدُّوه ، فرَدُّوه إليه. فقال له :لِمَ كتمتَنا نَفْسَك

(١) فى بعض أصول الأغانى : « أفلج » أى فز واظفر . وفى بعض آخر : « أفلح » من الفلاح ، وهو الفوز .

كأنك كنت تطلب العِلَل علينا ! اُجلسْ فلك عندنا ما يَسُرك . فجلس ، فقال له : مَن أشعر الناس ؟ قال : الذى يقول :

ومَنْ يَجْعَلِ المعروف من دُون عِرْضه يَفِرْهُ[1] ومَن لا يَتَّقِ الشَّتْم يُشْتَمِ

فقال له عُتَيبة: إن هذا من مُقدّمات أفاعيك ! ثم قال لوكيله : اُذهب معه إلى السُّوق فلا يطلبُ شيئاً إلّا اُشتريتَه له . فجعل يَعرض عليه الخَزَّ ورقيقَ الثياب فلا يُريدها ،ويُومِئ إلى الكرابيس[2] والأكْسِية الغِلاظ ،فيَشْتريها له . حتى قَضى أربَه ثم مضى . فلما جَلس عُتَيْبَةُ فى نادى قومه أقبل الحُطيئةُ ،فلمّا رآه عُتيبة قال: هذا مقامُ العائذ بك ياأبا مُليكة من خيرك وشرِّك . قال : لقد كنتُ قلتُ بيتين فاسْمَعْهما . ثم أنشأ يقول :

سُئِلْتَ فلم تَبْخَلْ ولم تُعطِ طائلاً فسيَّان لاذَمٌّ عليكَ ولا حَمْدُ
وأنتَ امرؤ لا الجُود منه سَجِيَّةٌ فتُعْطى وقد يُعْدِى على النَّائل[3] الوَجْد

ثم ركض فَرَسه وذَهب .

للأحوزى فى شعره

وقال أبو صَفْوان الأَحوزىّ :

مامن أحدٍ إلاّ لو أشاء أن أَجِدَ فى شعره مَطعناً لوجدتهُ ، إلاّ الحُطيئة .

فضله إسحاق على الشعراء بعد زهير

وأنشد إسحاق الموصلىّ قولَ الحُطيئة :

وفِتيانِ صِدْقٍ من عَدِيٍّ عليهمُ صفائحُ بُصْرَى عُلِّقَتْ بالعَوَاتِقِ
إذا ما دُعُوا لم يَسأَلُوا مَنْ دعاهمُ ولم يُمْسِكُوا فوقَ القُلوب الخَوافِق
وطارُوا إلى الجُرْدِ العِتاق فأَلجموا وشَدُّوا على أوساطهم بالمَناطق
أولئك آباءُ الغَريب وغَاثةُ الصَّ ريح ومأْوَى المُرْمِلين[4] الدَّرادق

(١) يفره : أى يبقيه موفراً طيباً لم ينتقص بشتم . وفرت العرض أفره ، ووفر هو : أكرم ولم يبتذل .
(٢) الكرابيس : ثياب من القطن . فارسى معرب .
(٣) يعدى : يعين . والوجد ، مثلثة الواو : اليسار والسعة .
(٤) الدرادق : الصبيان الصغار ؛ الواحد : دردق .

أَحَلُّوا حِياضَ الموت فَوْقَ جِبَاههم مكانَ النَّواصى من وُجوه السَّوابِق

ثم قال . أَمَا إنىّ ما أعلم أحداً بعد زُهير أَشْعرَ من الحُطيئة .

من بخله

وذُكر أنه مَرَّ ابنُ الحَمامة بالحُطيئة ، وهو جالسٌ بِفناء بَيْته ، فقال : السلامُ عليكم . فقال : قلتَ مالا يُنكر . قال : إنى خرجتُ من أهلى بغير زاد . فقال : ما ضَمِنْتُ لأهلك قِرَاك . قال : أفتأذن لى أن آتىَ إلى ظِلِّ بَيتك فأَتفيأَ به؟ قال : دونكَ الجبلَ يَفىء عليك . فقال : أنا ابنُ الحَمامة . قال : أنصرفْ وكُن ابن أىّ طائر شئتَ .

وقيل :

أتى رجلٌ الحطيئةَ وهو فى غَنَم له ، فقال : ياصاحبَ الغنم . فرفع الحُطيئةُ العصا وقال : إنها عَجْراء من سَلَم[1] . فقال الرجل : إنىّ ضَيف . فقال : للضِّيفان أَعددتُها . فانصرفَ عنه .

شعر له فى ناقة فقدها

وقيل : خَرج الحطيئةُ فى سَفر ومعه امرأتُه أُمامةُ وابنتُه مُليكة ، فنَزل منزلاً وسَرَّحَ ذَوْدًا[2] ثلاثاً . فلما قام فقَد إحداها ، فقال :

أَذِئْبُ القَفْر أم ذِئْبٌ أَنيسُ أصاب البَكْر[3] أم حَدَثُ اللَّيالِى

ونحن ثلاثةٌ وثلاثُ ذَوْدٍ لقد جار الزَّمانُ على عِيالى

لكعب الحبر فى بيت للحطيئة

وقيل :

أَنشد كَعبٌ الحِبر[4] قولَ الحُطيئة :

---

(١) العجراء : العصا فيها عقد . والسلم : شجر .

(٣) البكر : الفتى من الإبل ، والناقة التى ولدت بطناً واحدا .

(٢) الذود : الثلاث من الإبل إلى العشرة ، مؤنثة لا واحد لها من لفظها .

(٤) الحبر ، بالفتح ويكسر : العالم ، وهو وصف لكعب . وإذا نونت « كعبا » قلت : كعب الحبر . وإذا لم تنون جاز لك أن تقول : كعب الأحبار .

مَن يَفْعَلِ الخَيرَ لا يعْدَم جَوازِيَه ... لا يَذْهَبُ العُرفُ بين الله والنّاسِ

فقال : والذى نَفْسِى بيده ، إن هذا البيتَ مكتوبٌ فى التَّوراة .

وصى ابن شداد ابنه بشعره

وذُكر أنّ عُبيد[1] الله بن شَدَّاد ، لما حضرتْه الوفاةُ ، دعا ابنَه محمداً وأوصاه ، وقال : يا بُنَىّ ، إن داعِىَ الموت لا يُقْلع ، و بحقٍّ أنّ من مَضَى لا يَرجع ، ومن بَقِى فإليه يَنْزِع . يا بُنَىّ ، ليكُن أَولى الأُمور بك تَقْوى الله فى السرِّ والعلانية ، وصِدْق الحديث والنِّيّة ؛ فإنّ الشَّكور مُزَاد ، والتَّقوى خيرُ زاد ، كما قال الحُطيئة :

ولستُ أَرى السَّعادةَ جمعَ مالٍ ... ولكنّ التقىّ هو السعيدُ
وتَقوى الله خيرُ الزّاد ذُخراً ... وعند الله للأَتْقَى مَزِيد
وما لا بُدّ أن يأتى قَريبٌ ... ولكنّ الذى يَمْضِى بَعيد

كذبه عمر فى بيت قاله

وقيل :

سَبق رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم على فَرَسٍ له ، فَجَثَا على رُكبتَيْه وقال: إنه لَبَحْر[2] ! فقال عمر بن الخطّاب رضى الله عنه : كَذب الحُطيئة حيث يقول :

وإنّ جِيادَ الخَيْلِ لا تَستفزُّنا ... ولا جاعِلاتُ الرَّيْطِ[3] فوقَ المَعاصِمِ

ولو ترك ذلك أحدٌ لتركه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم .

استعطاف امرأته له وقد أراد سفراً

وقيل :

أراد الحُطيئة سفراً، فأتتْه امرأتُه ،وقد قُدِّمتْ راحلتُه [ليركبَ]، فقالت:

أُذْكِرُ تَحنُّنا إليك وشوقَنا ... وأُذكِّر بناتِك إنهن صِغَارُ

---

(١) فى الأمالى : « عبد الله بن شداد » .
(٢) أى واسع الجرى.
(٣) الريط : جمع ريطة ، وهى الملاءة . ذات لفقين . وهى أيضاً كل ثوب لين رقيق .

فقال : حُطُّوا ، لا رَحلتُ لسفرٍ أبدا .

استحسان ابن شبرمة لشعره

وذُكر أن ابن شُبْرُمة قال : أنا والله عالم بجيِّد الشِّعْر ، لقد أحسن الحُطيئة حيث يقول :

أولئك قومٌ إن بَنَوْا أحسنُوا البِنَى ... وإن عاهدوا أَوْفَوْا وإن عقدوا شَدُّوا

وإنْ كانتِ النَّعماء فيهم جَزَوْا بها ... وإنْ أَنْعموا لا كَدَّرُوها ولا كَدُّوا

وإن قال مَوْلاهم على جُلِّ حادثٍ ... من الدَّهر رُدُّوا فَضْلَ أحلامكم رَدُّوا

مدحه ابنى مقلد وقد أكرموا جواره

وقيل :

إنّ الحطيئة أقْحمتْه السنةُ (١) ، فنزل ببنى مُقَلَّد بن يَرْبُوع ، فمشَى بعضُهم إلى بعض فقالوا : إنّ هذا الرجلَ لا يَسْلم من لسانه أحدٌ ، فتعالَوْا حتى نسأَلَه عما يُحبُّ فنفعلَه ، وعمّا يكره فنَجْتَنِبه . فأَتَوْه وقالوا : يا أبا مُلَيكة ، إنّك اخترتَنا على سائر العرب ، ووَجب حَقُّك علينا ، فمُرْنا بما تُحب أن نَفْعَله ، وبما تُحِب أن نَنتهىَ عنه . فقال : لا تُكْثِروا زيارتى فَتُمِلُّونى ، ولا تَقطعوها فتُوحشونى ، ولا تَجعلوا فِناء بيتى مجلساً لكم ، ولا تُسْمِعُوا بناتِى غِناء شُبّانِكم ؛ فإن الغِناء رُقْيَةُ الزِّنا . فأقام عندهم ، وجمع كُلُّ واحد منهم ولدَه وقال : أُمُّكم الطَّلاقُ ، لئن تَغَنَّى أحدٌ منكم والحُطيئة مُقيم بين أظهرنا لأَضربنّه ضَرْبةً بِسَيْفى أخذتْ منه ما أخذتْ . فلم يَزَلْ مُقيماً فيما يرضَى ، حتى انجلتْ عنه السَّنةُ ، فارتحل وهو يقول :

جاورتُ آلَ مُقَلَّدٍ فحَمِدتُهم ... إذ لا يكاد أَخُو جِوَارٍ يُحْمَدُ

أَزْمانَ مَنْ يُرِدِ الصَّنيعةَ يَصْطنِعْ ... فيها ومن يُرِدِ الزَّهادَةَ (٢) يَزْهَد

---

(١) السنة : الجدب . وأقحمته : أوقعته فى شدة وضيق .

(٢) رفع المضارع الواقع جوابا لفعل شرط مضارع جائز فى غير الضرورة ، وإن كان خلاف الأصح . ولو روى « يزهد » بالكسر دخل الشعر الإقواء ، وهو اختلاف حركة الروى رفعا وجرا .

خبره مع الزبرقان ابن بدر

ولّى النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم الزِّبْرقانَ بنَ بَدر بنِ امرىء القيس بنِ خَلَف ابن بَهْدلةَ بن عَوْف بنِ كَعْب بن سَعْد بن زَيْد مَنَاةَ بنِ تميم عملًا — واسم الزِّبرقان الحُصَين ، وإنما سمِّي الزِّبرقان لحسنه ، شُبِّه بالقمر . وقيل : بل لأنه لَبِس عِمامة مُزَبْرَقَةً [1] بالزَّعفران فَسُمِّي الزَّبرقانَ بذلك . والزبرقان، فى اللغة القمر . والزبرقان أيضاً : الرجلُ الخفيف اللِّحية — فبقى على عَمَله حتى تُوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقرّه أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه بعد النبى صلى الله عليه وسلم على عمله . ثم قَدِم على عُمرَ بن الخَطّاب رضى الله عنه ليؤدِّى صدقاتِ قومه . فلقيه الحُطيئةُ بَقْرَقَرى [2] ومعه أبناه: أوس ، وسَوادَة، و بناته وامرأته، وذلك فى سَنَة مُجْدِبة . فقال له الزِّبرقانُ، وقد عرفه ولم يعرفه الحُطيئة: أين تُريد؟ قال : العراقَ، فقد حَطَّمتْناهذه السنةُ . قال : وتَصنع ماذا ؟ قال : وددْتُ أن أصادفَ بها رَجُلاً يَكفينى مُؤونة عِيالى وأُصْفيه [3] مَدْحِى أبداً . فقال له الزبرقانُ : قد أصبتَه ، فهل لك فيه يُوسعك لبناً وتمراً و يُجاورك أحسنَ جِوار وأكرَمه ؟ فقال الحطيئة :هذا وأبيك العيشُ ! وما كنت أرجو هذا كلَّه . قال : فقد أصبتَه . قال : عند مَنْ ؟ قال : عندى . قال : ومن أنتَ ؟ قال : الزِّبرقانُ بن بدر . قال : وأين محلُّك ؟ قال : اُركَبْ هذه الناقةَ واستقبلْ مَطْلَعَ الشمس، وسَلْ عن القَمر حتى تأتى منزلى ، فسِرْ إلى أُم شَذرةَ ،وهى أُمّ الزِّبرقان وعَمّة الفرزدق . وكتب إليها :أن أَحْسِنِى إليه وأكْثِرى له من اللّبن والتّمر . وقيل : بل أرسله إلى زَوْجته ، وهى هُنَيدة بنتُ صَعْصعة بن ناجية المُجاشعيّة . فأكرمتْه المرأة وأحسنتْ إليه . فبلغ ذلك بَغِيضَ بن عامر بن شَمّاس بن لأْى بن جَعفر ، وهو أَنفُ الناقة بن قُرَيع ابن عَوْف [4] بن كَعب بن سَعْد بن زَيْد مَنَاةَ بن تميم ، و بلغ إخوته و بنى عمّه،

(١) مزبرقة : مصبوغة بحمرة أو صفرة .
(٢) قرقرى : أرض باليمامة .
(٣) أصفيه : أخلصه .
(٤) فى الأصل : « عمرو » . تحريف .

وكانوا يَغضبون من تَلْقيبِ أباهم جعفراً بأَنف الناقة — و إنما سُمِّى جعفرٌ بأنف الناقة ، لأنّ أباه قُرَيعاً نَحر ناقةً فقسَمها بين نسائه ، فبعثتْ جعفراً هذا أُمُّه ، وهى الشَّمُوس، من وائل ثم من سَعد هُذَيم ، فأتى أباه ولم يَبْق من النَّاقة إلَّا رأسُها وعُنُقها ، فقال : شأنَك بهذا . فأَدخل يدَه فى أَنفها وجَرَّ ما أعطاه . فكانوا لذلك يغضبون من هذا اللَّقب ،حتى مَدحهم الحطيئةُ فقال :

قومٌ هُمُ الأنفُ والأذنابُ غيرُهُمُ ومَن يُسوِّى بأنْف النَّاقةِ الذَّنَبَا

فصار بعد ذلك فخراً لهم ومدحاً ، فكانوا يُنازعون الزِّبرقانَ الشرفَ — وكانوا أشرفَ من الزِّبرقان إلا أنّه قد كان استعلاهم بنَفْسه . وكان الحطيئةُ قبيحَ المَنْظر ، وكان عيالُه كذلك . فلما رأت أُمُّ شَذْرة حالَه هان عليها وقصَّرت به . ورأى بنو أَنْف الناقة و بَغِيضٌ ما تَصنَع به أُمُّ شَذْرة ، فأرسلوا إليه : أن ائْتِنَا . فأبى عليهم وقال : إنّ من شأن النّساء التَّقصيرَ والغَفْلة ، ولستُ بالذى أحمل على صاحبها ذَنْبَها ؛ فإن تُركتُ وجُفيتُ تحوّلتُ إليكم .فأَطمعوه ووَعدوه وعداً عظيما . وقيل : لمّا لم يُجِبْهم دَسُّوا إلى هُنَيدة ، زوجةِ الزِّبرقان،أنّ الزِّبرقان يُريد أن يتزوّج ابنته مُليكة ، وكانت جميلةً . فظهرتْ من المرأة للحُطيئة جفوةٌ ، وهى فى ذلك تُداريه، ثم أرادُوا النُّجْعة .(١) فقالت له هُنيدةُ : قد حَضرت النُّجعةُ فاركب أنت وأهلُك هذا الظَّهْرَ إلى مكان كذا وكذا ، ثم أُرْدُدْه إلينا حتى نَلْحقك ؛ فإنه لا يَسَعُنا جميعاً . فأرسل إليها : بل تقدَّمى فأنت أحقُّ بذلك . ففعلتْ وتثاقلتْ عن ردِّها(٢) إليه،و تركتْه يومين أو ثلاثةً ، وألَحَّ بنو أنف النَّاقة عليه ،وقالوا : قد تُركتَ بمَضْيعة . وكان أشدَّهم فى ذلك قولاً بغيضُ بن شمَّاس ، وعَلْقمة بن هَوذة . وكان الزبرقانُ قد قال فى عَلْقمة :

(١) النجعة : طلب الكلأ .

(٢) يريد : الظهر . وهو مذكر ، الا أنه أنث الضمير ملتفتاً إلى أن معناه : الدابة . وهى تقع على الأنثى والمذكر .

لِي ابنُ عَمٍّ لا يزا ل يَعيبنى ويُعين عائبْ
وأعينُه فى النـــائبا ت ولا يُعين على النَّوائبْ
تَسْرى عَقــاربُه إلـــىَّ ولاتَدِبُّ له عقاربْ
لاهِ[1] ابنُ عَمِّك لا يَخا فُ المُخْزِياتِ من العواقبْ[2]

وكان عَلْقمةُ ممتلئاً غيظاً عليه . فلما أَلَحُّوا على الحُطيئة أجابهم وقال : أمّا الآن فنعمْ ، أنا صائرٌ معكم . فتحمَّل معهم ، فضَربوا له قُبةً ، ورَبطوا بكُل طُنُب من أطنابها جُلَّة[3] هَجَرِيَّة ، وأراحوا[4] عليه إبلَهم ، وأكثروا له من اللَّبن والتَّمْر ، وأعطَوْه لِقاحاً[5] وكُسوةً . فلما قَدِمَ الزِّبرقانُ سأل عنه ، فأُخْبر بقصّته ، فنادى فى بَهْدلةَ بن عَوْف . وركب الزِّبرقانُ فرسَه ، وأَخذ رُمْحه ، وسار حتى وقف على نادى بنى شَمَّاس القُرَيْعيِّين فقال : ردُّوا علىّ جارى . فقالوا : ما هو لك بجارٍ ، وقد أَطّرحتَه وضيَّعتَه . فأَلَمَّ[6] أن يكون بين الحيَّيْن حربٌ . فحَضَرهم أهلُ الحِجَا من قومهم ، فلامُوا بَغيضاً وقالوا : أَرْدُدْ على الرجل جارَه . فقال : لست مُخْرِجَه وقد آويتُـه ، وهو رجلٌ حرٌّ مالكٌ لأَمره ، فخيِّروه فإن اختارنى لم أُخْرِجْه ، وإن اختاره لم أُكْرِهْه . فخيَّروا الحُطيئةَ ، فاختار بَغيضاً ورَهْطَه . فجاء الزِّبرقانُ فوقف عليه وقال : أبَا مُليكة ، فارقتَ جِوَارِى عن سُخْط وذَمّ ؟ قال : لا . فانْصرفَ وتركه .

وقيل :

استعدَى الزِّبرقانُ عُمرَ بن الخطّاب رضى الله عنه على بَغيضٍ ، فحكم عمرُ

(١) لاه : لله . (٢) فى بعض أصول الأغانى : « المحزنات » .
(٣) الجلة : وعاء من خوص للتمر .
(٤) إراحة الإبل : ردها فى العشى .
(٥) اللقاح : جمع لقوح ، وهى الناقة الحلوب .
(٦) ألم : قرب وأوشك .

أن يُخْرَجَ الحطيئةُ حتى يُقَام فى موضعٍ خالٍ بين الحَيَّيْن وحْدَه ، ويُخَلَّى سبيلُه ، ويكون جارَ أيِّهما اُختار . ففُعل ذلك به ، فاختار القُرَيْعيّين . وجعل الحطيئةُ يَمدحهم من غير أن يَهْجُوا الزِّبرقان ، وهم يحضّونه على ذلك ويُحَرِّضُونه ، فيأبَى ويقول : لا ذنبَ للرجل عندى . حتى أرسل الزبرقانُ إلى رجل من النَّمِر بنْ قاسِط ، فهجا بَغِيضاً ، فحينئذٍ قال الحطيئةُ ، يهجو الزِّبرقان ويُناضل عن بَغيض ، قصيدتَه التى يقول فيها :

والله ما مَعشرٌ لامُوا امرأً جُنُباً ... فى آل لَأْىِ بن شَمَّاس بأكياسِ
ما كان ذنبُ بَغيضٍ لا أبالكمُ ... فى يائسٍ جاء يَحْدو آخرَ الناس
لقد مريتُكمُ لو أنّ دِرَّتكم ... يوماً يَجىء بهامَسْحِى (١) وإبساسِى
وقد مدحتُكمُ عمداً لأُرْشِدَكم ... كيما يكونَ لكم مَتْحِى (٢) وإمراسى
لما بدا لىَ منكم غَيْبُ أنفسكم ... ولم يكن لجراحى فيكمُ آسى
أزمعتُ يأساً مُبيناً من نَوالكمُ ... ولن يُرَى طارِداً للحُرِّ كالياس
جارٌ لقومٍ أطالُوا هُونَ منزلِهِ ... وغادرُوه مُقِيماً بين أَرْماس
مَلُّوا قِرَاه وهَرَّتْه كلابُهمُ ... وجَرَّحُوه بأنيابٍ وأَضراس
دعِ المكارِمَ لا ترحلْ لبُغْيَتِها ... واُقعُد فإنك أنت الطَّاعِمُ الكاسى
من يَفْعَلِ الخيرَ لا يَعْدَم جَوازِيَه ... لا يذهبُ العُرْف بين الله والناس
ما كان ذنبِىَ أن فَلَّت مَعَاولَكم ... من آل لأْى صَفاةٌ أصلُها راسى
قد ناضَلُوك فسَلُّوا من كَنائنهم ... مَجْداً تَلِيداً ونَبْلاً غيرَ (٣) أنكاس

(١) المرى : مسح ضرع الناقة . يريد : داريتكم ومدحتكم لتدروا على بالعطاء . والدرة : اللبن . والإبساس : صوت الراعى تسكن به الناقة عند الحلب . (٢) المتح : جذب الدلو . والإمراس : إعادة الحبل إلى مجراه ، بعد أن يقع فى أحد جانبى البكرة ، بين الخطاف والبكرة .

(٣) أنكاس : جمع نكس ، وهو أضعف السهام . قال ابن منظور : ومعنى البيت : أن العرب كانوا إذا أسروا أسيراً خيروه بين التخلية وجز الناصية والأسر ، فإن اختار جز الناصية جزوها وخلوا سبيله ، ثم جعلوا ذلك الشعر فى كنانتهم ، فإذا افتخروا أخرجوه وأروه مفاخرهم .

فاُستعدَى عليه الزِّبرقانُ عُمَرَ بن الخطّاب رضى الله عنه ، فَرفعه عمرُ إليه واُستنشده ، فأنشده . فقال عُمر رضى الله عنه لحسّان بن ثابت : أترُاه هَجاه ؟ قال : نعم ، وسَلَح عليه . فَحبسه عُمر .

وقيل :

إنّ الزِّبرقان لما أتى عُمر رضى الله عنه بالحُطيئة ، قال : هَجانى . قال : وما قال فيك ؟ قال ، قال :

دَعِ المكارمَ لا تَرحلْ لبُغْيتها ... واُقعُدْ فإنّكأنت الطاعمُ الكاسِى

فقال عمر : ما أسمع هجاءً ولكنّها مُعاتبةٌ . فقال الزبرقان : أوما تبلُغ مُروءتى إلّا أن آكُل وألبس ! وسأل عُمر رضى الله عنه لبيدَ بن رَبيعه عن ذلك .فقال : ما يَسرُنى أنه لَحِقنى من هذا الشِّعر ما لَحِقه وأنّ لى حُمرَ النَّعَم . فأمر به عُمر رضى الله عنه فجُعل فى نَقِيرٍ(١) فى بئر ، ثم أُلْقى عليه شىء . فقال فى الحَبس أبياتاً وبَعث بها إلى عُمر ، وهى :

أعوذ بجَدِّك إنِّى امرؤٌ ... سَقَتْنِى الأعادىَ سَمًّا(٢) سِجَالَا

فإنّك خيرٌ من الزِّبرقان ... أَشَدُّ نَكالًا وأَرْجَى نَوَالا

تَحَنَّنْ علىّ هداك المَلِيكُ ... فإنّ لكُلِّ مقامٍ مَقَالا

ولا تَأْخُذَنِّى بقول الوُشاة ... فإنّ لكُلِّ زَمانٍ رِجَالا

فإنْ كان ما زَعموا صادقاً ... فسِيقَتْ إليك نِسَائى(٣) رِجَالا

حَوَاسِرَ لا يَشْتَكِينَ(٤) الوَجَى ... يُحَفِّضْنَ آلًا ويَرْفَعن آلا

(١) النقير : ما نقر وحفر .

(٢) السجال : جمع سجل ، وهى الدلو الضخمة المملوءة .يريد : مرة بعد مرة . والرواية فى بعض اصول الأغانى : « سقتنى الأعادى اليك السجالا » .

(٣) رجال : راجلة تمشى . الواحدة : رجلة ، بفتح الراء وضم الجيم .(٤) الوجى : الحفى .

فلم يلتفت إليه عُمر . فكلَّمه فيه عمرو بنُ العاص ، فأخرجه من الحَبس ، فأنشده قولَه فيه :

ماذا تقول لأفْراخٍ بذى أَمَرٍ (١) زُغْبِ الحَواصِلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ
غَادَرْتَ (٢) كاسِبَهم فى قَعْرِ مُظْلِمَةٍ فاغفر هداك مليكُ الناس ياعُمَرُ
أنت الإمامُ الذى من بعدِ صاحبِه ألْقتْ إليك مقاليدَ النُّهى البَشَرُ
لم يُؤْثِروك بها إذ قدَّموك لها لكن لأنفسِهم كانت بك الأُثَرُ (٣)
فامْنُنْ على صِبْيةٍ بالرَّمل مَسْكنُهم بين الأَباطِحِ تَغْشَاهم بها القِرَرُ (٤)
أهلى فِداؤُك كم بينى وبينهمُ من عَرْضِ داوِيَةٍ (٥) تَعْمَى بها الخُبُرُ

فبكى عُمر رضى الله عنه حين قال : « ماذا تقول لأفراخ » . فقال عمرو بن العاص : ما أَظَلَّتِ الخضْراء ، ولا أَقَلَّتِ الغبراء ، أعْدلَ من رجل يَبكى على تركه الحطيئةَ . ثم قال عمرُ رضى الله عنه : علىّ بالكُرسىّ . فأُتى به ،فجَلس عليه ثم قال : أَشيرُوا علىّ فى الشاعر ، فإنه يقول الهجْوَ و يَنْسُب بالحُرَم و يمدَح النَّاس و يذمّهم بغير ما فيهم ، ما أُرانى إلّا قاطِعاً لسانَه . ثم قال : علىّ بالطَّسْتِ . ثم قال : علىّ بالمِخْصَف (٦) ،علىّ بالسِّكّين، لا بل علىّ بالمُوسَى ، فهو أَوْحَى (٧) . فقالوا : لا يعود يا أمير المُؤمنين . فأشاروا إليه أن قُل : لا أَعُود . فقال : لا أعود يا أمير المؤمنين . فقال له : النَّجاء . فلما ولَّى قال له عُمر : يا حُطيئة ، كأنّى بك عند فتًى من قريش قد بَسط لك نُمْرُقة (٨) وكَسر لك أخرى . وقال : غَنِّنا ياحُطيئة . فطفقْتَ تُغَنِّيه بأَعراض الناس .

---

(١) ذو أمر : موضع بنجد من ديار غطفان . قال ياقوت : « وهى الرواية المشهورة ». ويروى : « بذى مرخ » وهو واد بين فدك والوابشية .
(٢) فى بعض أصول الأغانى : « ألقيت »
(٣) الأثر : المكرمات ؛ الواحدة : أثرة .
(٤) القرر : جمع قرة ، بالكسر ، وهى البرد .
(٥) الداوية والدوية : الفلاة الواسعة
(٦) المخصف : المخرز .
(٧) أوحى : أسرع .
(٨) النمرقة : الوسادة.

فحكى أسْلم قال : ما انقضت الدُّنيا حتى رأيتُ الحُطيئة عند عُبَيد الله بن عُمر قد بَسط له نُمرقة وكَسر له أُخرى ، وقال:غَنِّنا يا حُطيئة . فجعل يُغنِّيه . فقلت لهُ : يا حطيئة ، أتذكر قولَ عُمر ؟ ففَزِع وقال : يرحم الله ذلك المرء ، أما لو كان حَيًّا ما فعلتُ .

قال : وقلتُ لعُبيد الله : سمعتُ أباك يقول : كذا وكذا ، فكنتَ أنت ذلك الرجل .

وقيل: إنّ عُمر رضى الله عنه قال للحُطيئة : إيّاك وهجاء النَّاس . قال : إذاً يموت عِيالى جُوعاً ، هذا مكسَبى ومنه معاشِى . قال : إيّاك والمُقْذِعَ من القول . قال : وما المُقذع ؟ قال : أن تُخَايرَ بين النَّاس فتقولَ : فُلانٌ خَير من فلان ، وآل فلان خير من آل فلان . فقال : فأنتَ واللهِ أهجَى منّى . ثم قال : لولا أن تكون سُنَّةً لَقطعت لسانَك ،ولكن اذهب فأنت له . خُذه يا زِبْرقان . فألْقَى الزِّبرقان فى رَقبته عمامتَه فاقتاده بها . وعارضتْه غَطفَان ، فقالوا لهُ : يا أبا شَذْرَة ، إخْوتُك و بنوعَمِّك ، هَبْه لنا . فَوهبه لهم .

شراء عمر الأعراض منه

وذُكر أنّ عُمَر رضى الله عنه لمّا أطْلق الحُطيئةَ أراد أن يُؤَكِّد عليه الحجّة ، فاشترى منْه أعراض المُسْلمين بثلاثة آلاف دِرْهم . فقال الحُطيئةُ :

وأخذتَ أطْرافَ الكلامِ فلم تَدَعْ شَتماً يَضرُّ ولا مَديحاً يَنفَعُ
وحَمَيْتَنِي عِرْضَ اللَّئيم فلم يَخَفْ ذَمِّى وأصبح آمِنًا لا يَفْزَع

وصيته عند موته

وقيل :

لمّا حَضرت الحُطيئةَ الوفاةُ اجتمع إليه قومُه ، وقالوا : يا أبا مُلَيْكَة ، أَوصِ . فقال : ويلٌ للشِّعْرِ من رِاوية السُّوء . قالوا :أَوْص يرحمك الله يا حُطَيْئ . قال : مَن الذى يقول :

إذا أَنبض(١) الرَّامون عنها تَرَنَّمتْ تَرَنُّمَ ثَكْلَى أوجعتْها الجَنائزُ !

(١) أنبض القوس : جذب وترها التصوت .

قالوا :الشَّماخ . فقال:أبلِغوا غَطَفانَ أنّه أشعرُ العرب . قالوا : ويحك ! أهـذه وصيَّة ! أوْصِ . قال : أبلغُوا أهلَ ضابىء[1] أنّه شاعرٌ حيث يقول :

لـكلِّ جَـديدٍ لذّةٌ غـيرَ أنّنى رأيتُ جَديدَ الموتِ غَـيْرَ لَذِيذِ

فقالوا : أوْصِ ، ويحك بما ينفعك ! فقال : أبلغُوا أهل امرىء القيس أنّه أشعرُ العرب حيث يقول :

فَيَـالَكَ من لَيْـلٍ كأنَّ نُجُومَه بِـكُلِّ مُغَارِ الفَتْلِ شُدَّتْ[2] بِيَذْبُلِ

فقالوا : اتَّقِ الله ودَعْ عنك هذا ! فقال : أبلغُوا الأنصار أن صاحبَهم أشعرُ العرب حيث يقول :

يُغْشَونَ حتى ما تَهِرّ كِلاَبُهم لا يُسـألون عن السَّوَادِ المُقْبِـلِ

فقالوا : إنّ هذا لا يُغْنِي عنك شيئاً ، فُقُلْ غيرَ ما أنت فيه . فقال :

الشِّعر صعبٌ وطويلٌ سُلَّمُهْ إذا ارتقى فيه الذى لا يَعْلَمُهْ
زَلَّتْ به إلى الحَضِيضِ قَدَمُهْ يريد أن يُعْرِبه فيُعْجِمُهْ

فقالوا : هذا مِثْلُ الذى كنتَ فيه . فقال :

قد كنتُ أحيـاناً شديدَ المُعْتَمَدْ وكنتُ ذا غَرْبٍ على الخَصْمِ الألَدّ
فَوَرَدَتْ نفسى وما كادتْ تَرِدْ

فقالوا : يا أبا مُليكة ، ألك حاجة ؟ قال : لا ، ولـكن أجزَع على المديح الجَيِّـد يُمدح به من ليس له أهلًا . قالوا : فمن أشعرُ النَّاس؟ فأومأ بيده إلى فيـه، وقال : هـــذا الجُحَير[3] إذا طَـمِعَ فى خَير ، واسْتَعبر باكياً . فقالوا لهُ : قُلْ لا إله إلّا الله ! فقال :

---

(١) هو ضابئ بن الحارث البرجمى، ثم اليربوعى ،الشاعر ، من بنى تميم .
(٢) مغار الفتل : محكمه ؛ أغار الحبل إغارة : شد فتله . ويذبل : جبل لباهلة.
(٣) يعنى : « فمه » .

قالت وفيها حَيْدَةٌ وذُعْرُ عَوْذٌ بربِّي منكمُ[1] وحُجْرُ

فقالوا له : ما تقول فى عَبيدك ؟فقال: هم عَبيدٌ قِنٌّما تعاقب[2] الليلُ والنهار .

فقالوا : أَوْصِ للفقراء بشىء . فقال : أُوصيهم بالإلحاح فى المسألة فإنها تجارةٌ لا تَبُور، واُسْتُ المسئولِ أضيقُ[3]. قالوا : فما تقول فى مالِك ؟ فقال : للأنثى من ولدى مِثْلَا حَظِّ الذَّكَر . فقالوا : ليس هكذا قَضى اللهُ عزَّ وجل لهنَّ . قال : لكنى هكذا قضيتُ . قالوا : فما تُوصى لليتامى ؟ قال : كُلُوا أموالهم ونيكوا أُمهاتهم . قالوا : فهل شىء تَعهد فيه غير هذا ؟ قال : نعم . تَحْملونَنى على أَتانٍ وتتركونى راكبَها حتى أَموت ، فإن الكَرِيم لا يموتُ على فِراشِه ، والأَتانُ مَرْكَبٌ لم يَمُتْ عليه كَرِيمٌ قطُّ . فَحَملوه على أتانٍ وجعلوا يذهبون به و يجيئون وهو عليها حتى مات ، وهو يقول :

لا أحدٌ الْأَمُ من حُطَيْئَهْ هجَا بَنِيه وهَجا المُرِيَّهْ
من لُؤمِهِ ماتَ على فُرَيَّهْ

والفُرِيَّة : الأتان .

وذُكر أنّه أُنشد عمر بن الخطّاب رضى الله عنه قولَ الحطيئة :

تكذيب عمر له فى بيت سمعه

متى تَأْتِه تَعْشُو[4] إلى ضَوْء نارِه تجِدْ خَيْرَ نارٍ عندها خَيْرُ مُوقِدِ

فقال عُمر: كذب ! بل تلك نَارُ موسى صلّى الله عليه وسلم .

(١) حيدة : صدود و نفور. وحجر : دفع ومنع . (٢) فى الأصل : «ماعاقب»
(٣) كناية عن العجز . (٤) تعشو : تقصد فى الظلام .

أخبار ابن عائشة

اسمه وولاؤه

هو محمّد، ويُكْنَى :أبا جَعفر. ولم يكُنْ يُعرف له أب .و إنما نُسب إلى أُمه .وهو يزعم أن اسم أبيه جعفر، وليس يعرف ذلك . وأُمُّه عائشة مَوْلاة لكَثير بن الصَّلْت الكِنْديّ، حَليفِ قُريش . وقيل : إنّها مَوْلاة لآل المُطَّلِب بن وَداعة السَّهْميّ .

منزلته فى الغناء

وأخذ الغناء عن مَعبد ومالك ، ولم يَمُوتا حتى ساواهما ، على تَقْديمه لهما واعترافه بفضلهما . وكان أحسن النَّاس صوتاً ، وكان أبتداؤه بالغناء أحسنَ أبتداء ، حتى قيل : لو كان أوّلُ غِنَائه مثلَ آخره لقُدِّم على ابن سُرَيج .

من تيهه

وكان سَيِّءَ الخُلُق، إذا قال له إنسان : تغنَّ ، قال : لِمِثْلى يُقال هذا ! و إن قال إنسان ، وقد أبتدأ بغناء : أحسنتَ ! قال : لِمِثْلى يقال : أحسنتَ ! ثم يسْكُت. فكان قليلاً ما يُنتفع به .

أكرهه الحسن على الغناء فغناه

فسال العقيقُ ، مرَّةً فدخل عَرْصةَ سعيد بنِ العاصى الماء حتى ملأها ، فخرج النَّاسُ إليها ، وخرج ابنُ عائشة فجلس على قَرْن البئر . فبينا هم كذلك أقبل الحسنُ بنُ الحسن بن عليّ بن أبى طالب على بَغلةٍ ، وخَلفَه غُلامان أسودان كأنّهما من الشّياطين، فقال لهما : أمضيا رُوَيْدًا حتى تَقِفا بأَصْل القَرْن الذى عليه ابنُ عائشة . فخرجا حتى فعلا ذلك . ثم ناداه الحسنُ : كيف أصبحتَ يابنَ عائشة ؟ قال : بخير ، فِداك أبى وأُمى ! قال : أُنظُر مَنْ إلى جَنبك . فإذا العبدان . فقال لهُ : أتعرفهما ؟ قال : نَعم . قال : فهما حُرَّان لئن لم تُغَنِّيَنّ لآمُرنّهما بطَرْحِك فى البئر ، وهما حُرّان لئن لم يفعلا لأُقطعنّ أيديهما . فاندفع ابنُ عائشة ، فكان أوّلُ ما أبتدأ به صوتاً لهُ ، وهو :

أَلَا لله دَرُّكَ مِن فَتَى قَوْمٍ إذا رَهِبُوا
وقَالُوا مَنْ فَتًى للحر ب (١) يرقُبنا و يرتقب
فكنتَ فتاهمُ فيها إذا تُدْعى لها تَثِب

ثم لم يسكُت حتى غَنَّى مائة صوت. فيقال : إن النَّاس لم يَسمعوا من ابن عائشة أكثرَ ممّا سمعوا ذلك اليوم . وكان آخرَ ما غنّى :

قُل للمنازل بالظَّهْرَان (٢) قد حانا أن تَنْطق وتُبيني القولَ تِبْيانَا
قالت ومَن أنت قُل لى قلتُ ذو شَغَفٍ هِجْتِ له من دَواعى الشَّوق أحْزانا

فما رُئى يومٌ أحسنُ منه . ولقد سمع النَّاسُ شيئاً لم يَسمعوا مثلَه ، وما تشاغل النَّاس عن استماعه بشىء ، وما انصرف أحدٌ لقضاء حاجة ولا لغير ذلك حتى فَرَغ . ولقد تبادر الناس من المدينة و مما حولها حيث بلغهم الخبرُ لاستماع غنائه، فما رئى جمع فى ذلك الموضع مثل ذلك الجمع ، ولقد رَفع النَّاس أصواتَهم يقولون : أحسنتَ والله ! أحسنت والله ! ثم انصرفوا حولَه يزُفونه إلى المدينة زَفا .

غنى بالموسم فحبس الناس عن المسير

وقيل : إن ابن عائشة كان واقفاً بالموسم مُتحيِّراً ، فمرَّ به بعض أصحابه فقال : ما يُقيمك هاهنا ؟ فقال : إنى أعرف رجلًا لو تكلّم حَبس النَّاسَ هاهنا فلم يذهبْ أحدٌ ولم يَجىء . فقال له الرّجل : ومن ذاك ؟ قال : أنا ، ثم اندفع يُغنِّى :

جَرتْ سُنُحاً (٣) فقلتُ لها أجيزى نَوًى مَشْمولةً فمتى اللقاء
بنَفْسى مَنْ تذكُّره سَقَامٌ أُعَانيه ومَطْلَبُه عَناء

قال : فحُبس النَّاسُ واضطربتْ المحاملُ ومدَّت الإبل أعناقَها ، وكادت الفتنةُ تقع . فأُتِى به هِشام بن عبد الملك ، فقال لهُ : يا عدوّ الله ! أردتَ أن تَفْتن

(١) فى الأصل : «للحى» . (٢) الظهران : واد قرب مكة .
(٣) سنحا ، أى من الشمال . وأجيزى : انفذى . ومشمولة : سريعة الانكشاف . قال أبو الفرج : «أخذه من السحابة المشمولة وهى التى تصيبها الشمال فتكشفها ، ومن شأن الشمال أن تقطع السحاب . واستعارها هاهنا فى النوى، لسرعة انكشافهم فيها عن بلدهم ، وأجرى ذلك مجرى الذم للسانح ، لأنه يتشاءم به » .

النَّاسَ ! قال : فأمسك عنه وكان تَيَّاهاً . فقال له هشام : أُرفُق بِتِيهك . فقال : حَقّ لمن كانت هذه مَقْدرتَه على القلوب أن يكون تيَّاهاً[1] . فضحك منه وخلَّى سبيلَه.

فى حضرة الوليد بن يزيد

وحَكَى صاحبُ سِتْر الوليد بن يزيد بن عبدالملك قال : رأيتُ ابن عائشة عنده وقد غنّاه :

إنّى رأيتُ صَبيحة النَّفْرِ ... حُوراً نَفَيْن عَزيمة الصَّبْرِ
مثلَ الكواكب فى مَطالعها ... بعد العشاء أَطَفْن بالبدر
وخرجتُ أبغى الأجْرَ مُحْتسباً ... فَرجعْتُ مَوْفوراً من الوِزْر

فطرِب الوليدُ حتى كَفَر وألحدَ وقال : يا غلام ، اسْقِنا بالسَّماء الرابعة . وكان الغِنَاء يعمل فيه عملًا ضلّ عنه مَن بعدَه ، ثم قال له : أحسنتَ والله يا أميرى ! أعد بحق عبد شمس . فأعاد . ثم قال : أعدْ بحق أُميَّة . فأعاد. ثم قال : أعدْ بحق فلان، أعد بحق فلان، حتى بلغ من المُلوك نفسَه ، فقال: أعد بحَياتى . فأعاد. قال: فقام إليه فأكبَّ عليه . فلم يَبْقَ عُضْوٌ من أعضائه إلّا قبَّله، وأهوى إلى هَنِه فجعل ابنُ عائشة يضمّ فخذيه عليه . فقال : والله العظيم لا تَريم حتى أُقبِّله . فأبداه لهُ . فقبَّل رأسَ ذكَره . ثم نَزع ثيابَه فألقاها عليه ، وبقى مجرّداً إلى أن أتوْه بمثلها . ووَهب له ألفَ دينار وحَمله على بغلة ، وقال : اركبْها بأبى أنت وانصرفْ ، فقد تركتَنى على مثل المَقْلى من حرارة غنائك . فركبها على بِساطه وانصرف .

هو ورجل من أهل وادى القرى يشتهى الغناء

وقيل : خرج ابنُ عائشة من عند الوليد بن يزيد وقد غنَّاه :

أبعدكَ مَعْفِلا أرجو وحِصْنًا ... قد اُعيتْنِى المعاقلُ والحُصونُ

فأَطربَه ، وأمر له بثلاثين ألفَ دِرْهم وبمثل كارةِ القَصّارة كُسوةً . فبينا ابنُ عائشة يسير على بغلته ، إذ نظر إليه رجلٌ من أهل وادى القُرى كان يشتهى الغِنَاء ويَشرب النَّبيذ ، فدنا من غُلامه وقال : مَن هذا الراكب ؟ قال : ابنُ عائشة

(١) فى الأصل : «تائها» .

المُغنِّى . فدنا منه وقال : جُعلتُ فداك ؟ أنت ابنُ عائشة أُم المُؤمنين ؟ قال : لا ، أنا مولًى لقُريش وعائشة أُمِّى ، وحَسْبك هذا ، ولا عليك أن تُكثر . قال : وما هذا الذى أراه بين يديك من المال والكُسوة ؟ قال : غَنّيت أميرَ المؤمنين صوتاً فأطربتُه ، فكفّر وترك الصلاةَ وأمر لى بهذا المال وهذه الكُسوة . قال : جُعلتُ فداك ! فهل تمُنّ علىّ بأن تُسمِعَنى ما أسمعتَه إيّاه ؟ فقال له: ويحك ! أمثلِى يُكلّم بهذا فى الطريق ! قال: فما أصنَع . قال : ألحقْنى بالباب . وحرّك ابنُ عائشة بغلتَه لينقطع عنه ، فعدَا معه حتى وافيَا البابَ كفرسَىْ رِهانٍ ، ودخل ابنُ عائشة فمكث طويلا طمعاً فى أن يَضْجَر فينصرفَ ، فلم يفعل . فلما أعياه قال لغُلامه : أدخله . فلما دَخل قال له : ويلك ! من أين صَبَّك الله علىّ ؟ قال : أنا رجلٌ من أهل وادى القُرى أَشْتهى هذا الغناء . فقال له : هل لك فيما هو أنفعُ لك منه ؟ قال: وماذاك؟ قال: مائتادينارٍ وعشرةُ أثواب تَنْصرف بها إلى أهلك . فقال له : جُعلتُ فداك ! والله إنّ لى لبُنيَّة مافى أُذنها — علم الله — حَلقة من الوَرِق فضلاً عن الذهب ، وإنّ لى لزوجةً ما عليها — يشهد الله — قميصٌ ، ولو أعطيتنى جميع ما أمر لك به أميرُ المؤمنين على هذه الخَلّة[1] والفقر اللذين عرّفتكهما، وأضعفتَ لى ذلكَ ، لكان الصوتُ أعجبَ إلىّ . وكان ابنُ عائشة تائهاً لا يغنّي إلّا لخليفةٍ أو لذى قَدْر جليل من إخوانه . فتعجّب ابنُ عائشة ورحمه وغنّاه الصوتَ ، فطرب له طرباً شديداً وجعل يُحرّك رأسَه حتى ظنّ أنّ عُنُقه سَينقصف . ثم خَرج من عنده ولم يَرْزأه شيئاً . وبلغ الخبرُ الوليدَ بن يزيد ، فسأل ابن عائشة عنه، فجعل يَغيب عن الحديث . ثم جدّ الوليدُ به ، فصدَقه عنه . وأمر بطلب الرجل ، فطُلب حتى أُحضر، ووَصله صلةً سنيّة،وجعله فى نُدمائه ووكّله بالسّقى . فلم يزل معه حتى قُتل.

غناؤه لفتية من بنى هاشم

وقيل : دعا فِتْيةٌ من بنى هاشم ابنَ عائشة فأجابهم . فلما دخل جعلوه فى صدر المجلس فتحدّثوا حتى حضر الطعام. فلما طَعِموا دعَوْا بالشراب فشربوا. وكان ابنُ عائشة

(١) الخلة : الحاجة والخصاصة.

إذا سُئل أن يُغنى أبى وغَضِب ، فإذا تحدَّث القوم بحَديث ومَضى فيه شعرٌ قد غُنى فيه ابتدأ هو فغنّاه ، فكان مَن فَطِن له يفعل ذلك به . فقال رجلٌ منهم : حدّثنى رجلٌ من الأعراب ممّن كان يَصحبُ جَميلاً بحديث عَجيب . فقال القومُ : وماهو؟ قال : حدّثنى أن جميلًا بينا هو يحدّثه ،كما كان يَفعل، إذ أنكره ورأى منه غَيْر ما كان يَرَى . فثار نافراً ، مُقشعرّ الشعر مُتغيّر اللون ، إلى ناقة له مُجتمعة[1] قريبة من الأرض مُوثّقة الخَلْق ، فشَدَّ عليها رَحْلَه ، ثم أتاها بمِحْلَب فيه لبنٌ فشربته،ثم ثنّى بآخر فشربتْ حتى رويتْ .ثم قال : أشدُد أداة رَحْلك واُشرب واسقِ جَملك ، فإنى ذاهب بك إلى بعض مَذَاهبى . ففعلتُ ، فجال فى ظَهْر ناقته وركبتُ معه جَملى . فسِرنا بياضَ يومنا وسَواد ليلتنا ، ثم أصبحنا فسِرْنا يومَنا ، لا والله ما نَزلنا إلّا لصلاة . فلما كان اليومُ الثالث دَفَعْنا إلى نسوة ، فمال إليهنّ. فوجدنا الرجالَ خُلوفاً[2] ، وإذا قِدْرُ لِبَأٍ[3] وقد جُهدت جُوعاً وعَطشاً،فلمارأيتُ القِدْر اُقتحمتُ[4] عن بَعيرى وتركتُهم جانباً،ثم أدخلتُ رأسى فى القِدر ما يَثْنينى حَرُّها حتى رَوِيتُ ، فذهبتُ أُخرج رأسى من القدر فضاقت علىّ ، فإذا هى على رأسى قلنسوة . فضَحكنَ منّى وغَسَلْن ما أصابنى . وأُتى جَميلٌ بقرًى ، فوالله ما التفتَ إليه . فبينا هو يحدّثهن إذا رَوَاعى الإبل ، وقد كان السلطانُ أحلّ لهم دَمَه إن وجدوه فى بلادهم . وجاء الناسُ فقلن[5] : ويحك ! أنْجُ وتقدَّم ، فوالله ما أكبرَهم ذلك الإكبار ، فإذا بهم يَرْمونه ويَطردونه ، فإذا غَشَوْه قاتلهم ورَمَى فيهم . وقام بى جَملى ،فقال لى: يَسِّر لنفسك مَرْكباً خَلْفى. فأردفنى خَلْفه، لا والله

(١) مجتمعة : شديدة قوية .
(٢) خلوفا : غائبين عن الحى .
(٣) اللبأ : أول اللبن فى النتاج .
(٤) اقتحمت : بادرت بالنزول .
(٥) فى الأصل : « فقالوا » . وهى رواية أكثر أصول الأغانى .

ما انكسر حتى رَجع إلى أهله ، وقد سار ستَّ ليالٍ وستة أيام وما التفتَ إلى طعام ، وقال فى ذلك :

إنّ المنازل هَيَّجَتْ أطرابِي ... وأستعجمتْ آياتُها بجوابِي
قَفْرٌ تلوح بذى اللُّجَيْن كأنها ... أنْضاءرسْم[1] أو سُطور كتاب
لما وقفتُ بها القلُوص تبادرت ... منّى الدموعُ لفُرقةِ الأحباب
وذكرتُ عصراً يابُثَينة شاقَنى ... إذ فاتنى وذكرتُ شَرخ شبابى

وقال ، وهو من قصيدة :

وأحسنُ أيّامى وأبهجُ عِيشتى ... إذا هيجَ بِى يوماً ونحن[2] قُعودُ

فقال ابنُ عائشة : أفلا أُغنى لكم ذلك ؟ فقلنا : بلى والله . فأندفع فغنّاه . فما سَمع السامعون شيئاً أحسنَ من ذلك . و بقى الجماعةُ يتعجّبون من الحديث وحُسْنه والغناء وطِيبه . فقالوا لهُ : يا أبا جعفر ، إنا مُستأذنون ، فإن أذنت لنا سألناك . و إن كرهتَ تركناك . قال : سَلوا . قالوا : نُحب أن تُغنّينا فى مجلسنا هذا ما نَشطْتَ هذا الصوتَ . فقال لهم : نَعم و نعمةَ عينٍ وكرامةً . فما زِلنا فى غاية السرور حتى انقضى المجلس .

هو وجماعة من قريش جروه إلى الغناء

وحَكى يونُس الكاتب قال : كُنّا [يوما] متنزّهين بالعَقيق أنا وجماعةٌ من قُريش ، فبينا نحن على حالنا إذ أقبل ابنُ عائشة يمشى ، ومعه غلام من بنى لَيْث وهو مُتوكّيء على يده ، فلما رأى جماعَتنا وسَمعنى أُغَنّى جاء فسلّم ، وجلس [إلينا] وتحدّث معنا . وكانت الجماعةُ تَعرف سُوء خُلقه وغَضَبه إذا سُئل أن يغنى ، فأقبل بعضهم على بعض يتحدّثون بأحاديث كُثيِّر وجَميل وغيرهما من الشعراء ، يَسْتَجِرُّون

(١) أنضاء رسم ، أى بقايا .
(٢) فى بعض أصول الأغانى : « وهن » مكان « و نحن » .

بذلك أن يَطْرب فيُغنِّىَ . فلم يَجدوا عنده ما أرادوا ، فقلتُ لهم أنا : لقد حدّثنى اليومَ بعضُ الأعراب حديثًا يأكل الأحاديث ، فإن شئتم حدّثتكم إيّاه . قالوا : هات . قلتُ: حدّثنى هذا الرجلُ أنه مَرَّ بناحية الرَّبذة[1] فإذا صِبْيان يتغاطَسُون فى غَدير ، وإذا شابٌّ جميل منهوك الجسم عليه أثرُ العِلَّة ، والنُّحول فى جسمه بَيِّن ، وهو جالسٌ ينظر إليهم ، فسلّمت عليه، وردّ علىّ السلام ، وقال لى : من أين وَضَح[2] الراكب ؟ قلت : من الحِمَى. قال : ومتى عَهْدك به ؟ قلت : رائحًا . قال : وأين كانَ مبيتُك ؟ قلت : ببَنى فلان . قال : أوَّه ! وألقى بنفسه على ظهره وتنفَّس الصُّعداء تنفُّسًا قلت إنَّه قد خَرَّق حجاب قلبه . ثم أنشأ يقول :

سقَى بلداً أمستْ سُلَيمى تحلُّه ... من المُزْن ما يَرْوَى به[3] ويُسيمُ
وإن لم أكن مِن قاطنيه فإنه ... يَحُلّ به شخصٌ علىّ كريم
ألَا حبّذا مَن ليس يَعْدِلُ قُرْبَه ... لَدىّ وإن شَطّ المَزارُ نَعِيم
ومَن لامَنى فيه خليلٌ وصاحبٌ ... فَرُدَّ بغَيظ صاحبٌ وحَمِيم

قال : ثم سكن كالمغشىّ عليه . فصحتُ بالأُصَيبية . فأتَوْا بماء فصَبَبْتُه على وجهه، فأفاق وأنشأ يقول :

إذا الصبُّ الغريبُ رأى خُشوعى ... وأنفاسى تَزَيَّن بالخُشوعِ
ولى عَيْن أَضَرَّ بها التفاتى ... إلى الأجراع مُطْلقةَ الدُّموع
إلى الخَلَوات يأنس فيكِ قلْبى ... كما أَنِس الغَريبُ إلى الجميع

فقلتُ له : ألا أنزلُ فأُساعدَك وأكُرّ عَوْدى على بَدْئى إلى الحِمَى فى حاجة أو رسالة، إن كانت لك حاجة أو رسالة. فقال: جُزيت خيراً وصحبتْك السلامةُ ، أمض

(١) الربذة : قرية على ثلاثة أميال من المدينة .
(٢) وضح : بدا وطلع .
(٣) أسام : أرعى . يريد ما يجعله صالحاً للإسامة .

لطيّتك[١] ، فلو علمتُ أنك تُغْنى عنى شيئاً لكنتَ موضعاً للرغبة وحقيقاً بإسعاف المسألة، ولكنك أدركتنى فى صُبَابة من حياتى يسيرة . فأنصرفتُ وأنا لا أراه يُمسى ليلَه إلّا ميّتاً . فقال القوم : ما أعجب هذا الحديث !واندفع ابنُ عائشة يغنّى فى الشعرَيْن جميعاً .وطَرِب وشَرِب بقيّة يومه ، ولم يزل يُغنّينا إلى أن انصرفنا .

عند ابن هشام وقصة موته

وذُكر أنّ ابن عائشة أقبل من عند الوليد بن يزيد ، وقد أجازه وأحسن إليه ، فجاء بما لم يأت به أحدٌ من عنده ، فلما قرُب من المدينة نزل بذى خُشب[٢] على أربعة فراسخ من المدينة،وكان واليَها إبراهيمُ بن هشام،ولّاه إياها[هشامٌ]وهو خالُه، وكان فى قَصره هناك . فقيل له : أصلح الله الأمير ، هذا ابنُ عائشة ورد من عند الوليد بن يزيد ، فلو سألته أن يُقيم عندنا فيُطْربنا ويَنصرف من الغد ؟ فدعا به فسأله المُقام ، فأجابه إلى ذلك . فلما أخذوا فى شُربهم أخرج المخزومىّ جواريَه، فنظر إلى ابن عائشة وهو يَغْمز جاريةً منهن ، فقال لخادمه : إذا خرج ابنُ عائشة يُريد حاجة فأرْم به . وكانوا يشربون فى سَطْح ليس له إفريز ولا شُرفات،يُشرف على بُستان . فلما قام ليبول رَمى به الخادمُ من فوق السطح فمات . فقبرهُ معروف هناك .

وقيل :

إنه أقبل من الشام حتى نزل بقصر ذى خُشب ومعه مالٌ وطيبٌ وكُسًا ، فصعد إلى القَصر.ثم نظر فإذا بنسوة يتمشّين فى ناحية الوادى، فقال لأصحابه : هل لكم فيهنّ ؟ قالوا : وكيف بهن ؟ فنَهض ولَبِس مُلاءة مَدْلوكة[٣]،ثم قام على شُرفة من شُرفات القَصر فتغنّى بشعر ابن أُذينة :

---

(١) لطيتك : لوجهك .

(٢) ذوخشب : واد على مسيرة ليلة من المدينة فى الطريق إلى الشأم .

(٣) مدلوكة : مصقولة .

سُـلَيمى أزمعتْ بَيْنـاَ فأين تقولها[1] أيناَ
وقـد قالت لأتراب لهـا زُهْرٍ تلاَقينـا
تعالَيْن فقـد طاب لنـا العيشُ تعالَيْنـا

فأقبلْن إليه . فطرب واستدار، فسقط فمات . ولما مات قال أشعب : قد قلتُ لـكم ! ولـكنه لا يُغنى حذرٌ من قدَر : زوِّجو ابن عائشة من رُبيحة الشّماسيّة تخرج لـكم بينهما مزاميرُ داود ! فلم تفعلوا . وجعل يبكى والناس يضحكون .

(١) تقولها ، أى تظنها .

أخبار ابن أَرطاة

نسبه

هو عبدالرحمن بن أَرطاة. وقيل: عبدالرحمن بنُ سَيْحان بن أرطاة بن سيْحان ابن عمرو بن نُجَيد بن سعْد بن لاحِب بن ربيعة بن شُكم بن عبد الله بن عَوْف بن زيد بن بكر بن عُمَير بن علىّ بن جَسْر بن مُحارب بن خَصَفة بن قيْس بن عيْلانَ بن مُضَر بن نِزار بن معدّ بن عدنان.

وشُكم بن عبد الله أولُ مُحاربىّ ساد قَوْمه وأفردَهم رأساً بنفسه. وكانوا جيراناً فى هوَازنَ. وآلُ سيْحان حلفاء حَرْبِ بن أُميَّة بن عبدِ شمس، و بمنزلةِ بعضهم عندهم خاصّة، وعند سائر بنى أُميَّة عامّة.

منزلته فى الشعر وحلفه فى أمية

وكان عبدُ الرحمن بن أرطاة شاعراً مُقلاً إسلاميًّا، ليس من الفُحول المشهورين، ولكنه كان يقول فى الشَّراب والغَزَل والفَخْر ومَدْح أحلافه من بنى أُميَّة. وهو أحدُ المُعاقرين للشَّراب والمحدودين فيه. وكان مع بنى أُميَّة كواحدٍ منهم، إلّا أن اختصاصه بآل أبى سُفيان وآل عُثمان خاصّة كان أكثر. وخُصوصَه بالوليد بن عثمان ومُؤانسته إيّاه أزيدُ من خُصوصه بسائرهم، لأنهما كانا يَتنادمان على الشَّراب.

قيل:

مدحه للوليد ابن عثمان

كان الوليد بن عُثمان بن عفّان ذا غَلّة فى الحجاز، يخرج إليها فى زمان التَّمر بنفر من قومه، يَجنون له و يُعاونونه، وكان إذا حضَر خروجُهم دفع إليهم نفقاتٍ لأهليهم إلى رُجوعهم. فخرج مرّةً كما كان يخرُج، وفيهم ابنُ سيْحان - وهو ابن أرطاة - فأتى ابنَ سيحان كتابٌ من أهله يسألونه القُدوم لحاجةٍ لا بدَّ منها، فاستأذنه فأذِن له، فقال له

ابنُ سيْحان: زوِّدنى من شَرابكم هذا . فزوَّده إداوةً ملأها له من شرابهم . فكان يشربها فى طريقه ،حتّى قدِم على أهله ، فألقاها فى جانب البيت فارغةً مطروحةً . فمكث زماناً لا يذكرها ، ثم كَنسوا البيت فرآها مُلْقاةً فى الكُناسة ، فقال فى ذلك . ومن هـذا الشعر الأبيات التى فيها الغناء ، وافتتح بها أبو الفرج أخبار ابن أرطاة :

بأبى الوليـدُ وأُمِّ نفسى كُلّمـا ... بدَتِ النُّجومُ وذَرّ قرْنُ الشارِقِ
كم عنده من نائلٍ وسَماحةٍ ... وشَمائلٍ ميْمونةٍ وخَلائق
وكرامةٍ للمُعْتفين إذا اُعتَفَوا ... فى ماله حقًّا ووَعْدٍ صادق
أَثْوَى فأكْرم فى الثَّواء وقُضِّيتْ ... حاجاتُنا من عِند أرْوعَ باسِق
لما أتيناه أَتيْنا ماجدَ الْـ ... ـأَخلاق سبَّاقاً لقَرْمٍ[1] سابق
قال الوليدُ يَدِى لكم رهْنٌ بما ... حاولتُمُ من صامتٍ أو ناطق
فإلى الوليد إليه[2] حنَّت ناقتى ... تهْوِى بمُغْبرّ المُتُون[3] سَمالق
حنّتْ إلى بَرْق فقلتُ لها قِرِى ... بعضَ الحنِين فإن شجْوك شائقى
لا تبْعدَنّ إداوةٌ مطروحةٌ ... كانت قديماً للشراب العاتق
إن تُصْبحى لا شىءَ فيكِ فرُبّما ... أُتْرِعْتِ من كأسٍ تلذُّ لذائق

حده الوليد بن عثمان فى الخمر وأبطله عنه معاوية

وذُكر أنّ ابنَ سيْحان ، وهو عبد الرحمن بن أرطاة المُحاربى ، كان حُلْوَ الأحاديث ، عنده أحاديثُ حسنةٌ غريبةٌ من أخبار العرب وأيّامها وأشعارها ، وكان على ذلك يُصيب من الشَّراب ، فكان كل مَن قدِم من وُلاة بنى أُميَّة وأحداثهم ، ممن يُصيب الشراب يدعوه ويُنادمه . فلمّا وَلِى الوليدُ بن عُتبة

(١) القرم : السيد .
(٢) فى اللسان (سملق) : « اليوم » .
(٣) سمالق : جمع سملق ، وهى الأرض المستوية الجرداء التى لا شجر فيها .

ابن أبى سُفيان المدينةَ وعُزل عنها مروان بنُ الحكم ، وَجَد مروانُ فى نفسه . وكان الوليد يُصيب من الشراب ويَبعث إلى ابن سيْحان فيشرب معه ، وابن سيْحان لايظنّ أن مروان يفعل به الذى فَعله . وقدكان مَدَحه ابنُ سيْحان ووَصله مَرْوان . ولكنّ مروان أراد فضيحةَ الوليد ، فرَصده ليلةً من المسجد ، وكان ابنُ سيْحان يخرج فى السَّحر من عند الوليد ثملاً فيمرّ فى المقصورة من المسجدِ حتى يخرج فى زُقاق عاصِم . وكان محمدبن عمرو يبيتُ فى المسجد يصلّى، وكذلك عبدالله بن حَنْظلة وغيرهما من القُرَّاء . فلمّا خرج ابنُ سيْحان ثملاً من دار الوليد أخذه مَرْوان وأعوانُه ، ثم دعا له محمدَ بنَ عمرو، وعبدَ الله بن حنظلة، فأشهدهما على سُكْره ، وقد سأله أن يقرأ أُمَّ الكتاب ، فلم يقرأها ، فدَفعه إلى صاحب شُرَطه فحبَسه. فلمّا أصبح الوليدُ بلغه الخبرُ وشاع فى المدينة ، وعَلِم أنّ مرْوان إنما أراد أن يَفضحه ، وأنه لو لَقِى ابنَ سيْحان ثملاً خارجاً من عند غيره لم يَعْرض له . فقال الوليد : لا يُبَرِّئنى من هذا عند أهل المدينة إلّا ضربُ ابن سيْحان . فأمر صاحب شُرَطه فضَربه الحدَّ ثم أرسله .فجلس ابنُ سيْحان فى بيته [لا يخرُج] حياءً من الناس . فجاءه عبدُ الرحمن بن الحارث بن هشام فى ولده ، وكان له جليساً ، فقال له : ما يُجلسك فى بيتك ؟ قال : الاستحياء من الناس . قال : اُخرُج أيُّها الرجل . وكان عبد الرحمن قد حَمل له معه كُسوة ، فقال له : البسها ورُحْ معنا إلى المسجد ، فهذا أحرى أن مُكذِّب به مُكذِّب ، ثم نَرحل إلى أمير المؤمنين فنُخبره بما صَنع بك الوليد ، فإنه يَصلك ويُبطل هذا الحدّ عنك . فراح مع عبد الرحمن فى جماعة وَلده متوسِّطاً لهم حتى دخل المسجد ، فصلّى ركعتين ، ثم تساند مع عبد الرحمن إلى الأُسْطوانة ، فقائل يقول : لم يُضرب ، وقائل يقول : أنا رأيتُه يُضرب ، وقائل يقول : عُزِّر أسْواطاً . ثم رحل إلى مُعاوية بن أبى سُفيان ، فدخل إل يزيدَ بن مُعاوية فشرب معه . فكلّم يزيدُ أباه مُعاوية فى أمره ، فدعا به

فأخبره بقصّته وما صنعه به مَروان . فقال : قَبح الله الوليـدَ ! ما أضعفَ عقلَه ! أما اُستحيا أن يضرب فيما شَرِب ! وأمّا مرْوان فإنّى كنتُ لا أحسَبه يبلغ هذا منك مع رأيك فيه ومودّتك له ! ولـكنّه أراد أن يضع الوليد عندى ولم يُصب، وقد وضع نفسه فى حدٍّ كُنّا نُنزِّهه عنـه ، صار شُرطيا ! ثم قال لـكاتبه : اكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله مُعاوية أمير المؤمنين إلى الوليـد اُبن عُتبة . أما بعد . فالعجبُ من ضَربك اُبن سيْحان فيما تَشرب منه ! مازِدْت على أن عرّفتَ أهل المدينة ما كنتَ تشرب به ممّا حرّم الله عليك . فإذا جاءك كتابى هذا فأبطل الحدَّ عن اُبن سيْحان ، وطُف به فى حِلَق المسجد، وأخبرهم أنّ صاحب شُرْطتك تعدّى عليه وظلمه ، وأنّ أمير المؤمنين قد أبطل ذلك عنـه . أليس اُبن سيحان الذى يقول :

وإنّى امْرؤٌ أُنْمَى إلى أفْضـل الورى ... عديداً إذا اُرْفضَّتْ عصا المُتحلِّفِ
إلى نَضَـدٍ من عبـد شَمس كأنّهم ... هِضابُ أَجا[1] أركانُهـا لم تَقصَّف
مَيامينُ يَرْضوْن الـكِفايةَ إنْ كُفوا ... ويكْفُون ما وُلُّوا بغـير تكلُّف
غَطارفةٌ[2] ساسُـوا البلاد فأَحْسنوا ... سـياستها حتى أقرّت لمُرْدِف
فمن يكُ منهم مُوسراً يُغْشَ فضـلُه ... ومن يكُ منهم مُعْسراً يتعفَّف
وإن تُبْسَطِ النُّعْمى لهم يَبْسطوا بهـا ... أكفّاً سِبَاطاً نفعُها غير مُقْرَف[3]
وإن تَزْوَ عنهم لا يَضِجُّوا وتُلفهم ... قليلِى التشكّى عنـدها والتكلُّف
إذا انصرفُوا للحقِّ يوماً تصرَّفوا ... إذا الجاهلُ الحَيْران لم يتصرَّف
سَمَوْا فعـلَوْا فوق البريَّة كلّهـا ... ببُنيـانِ عالٍ من مُنيفٍ ومُشْرِف

(١) النضد : الأعمام والأخوال المتقدمون فى الشرف . وأجا، بالهمز وسهل : أحد جبلى طيئ ، والآخر يقال له : سلمى .

(٢) غطارفة : سادة شرفاء . الواحد : غطريف . ومردف : تابع .

(٣) سباط : جمع سبط ، وهو السمح . وغير مقرف : ليس فيه ما يشين .

وكتب له أن يُعْطَى أربعمائة شاةٍ وثلاثين لِقْحةً ، وأمر له بخمسمائة دينار . وأعطاه يزيدُ بن مُعاوية مائتى دينار . ثم قدِم بكتاب مُعاوية إلى الوليد ، فطاف به فى المسجد ، وأبطل ذلك الحدَّ عنه ، وأعطاه ما كتب له به مُعاوية . وكتب معاويةُ إلى مَرْوان يلومه فيما فعله بابن سَيْحان ، وما أراده بذلك . ودعا الوليدُ عبدَ الرحمن بن سَيْحان أن يعود للشُّرب معه . فقال : والله لا ذقتُ معك شراباً أبداً .

وقيل : إنّ مُعاوية كتب إلى مَروان بإبطال الحدّ عنه ، وإن مروان هو الذى أقام عليه الحدَّ فى ولايته ، وأن يُخطب بذلك فوق المِنبر . فلما ورد عليه الكتابُ عظُم عليه ودعا بابنه عبد الملك فقرأه عليه ، وشاوره فيه . فقال له عبد الملك : راجِعْه ولا تكذِّب نَفسك ولا تُبطل حكمك . فقال مروان : أنا أعلم بمُعاوية إذا عَزم على شىء وأراده ، لا والله لا أُراجعه فيه . فلمّا كان يوم الجمعة وفرَغ من الخَطبة قال : وابنُ سَيحان ، فإنّا كشفنا أمره فإذا هو لم يَشرب مُسْكِراً ، وإذا نحن قد عجَّلنا عليه ، وقد أبطلتُ عنه الحدَّ . ونَزل وأرسل إليه بألفى دِرهم .

مقتل سعيد بن عثمان ورثاؤه له

وذُكر أن سَعيد بن عثمان بن عفّان لمّا قدم المدينة بعد قُفوله من الصُّغْد[1] ، كان معه غِلْمان جاء بهم من تلك الناحية ، فوثبوا به فى المَدينة فقتلوه . . وكان معه يومئذ عبدُ الرحمن بن أرطاة بن سَيحان ، فهَرب عنه . فقال خالد بن عُقبة ابن أبى مُعَيط — وقيل : بل قال ذلك أبو قَطيفة :

* يا عينُ جُودى بدمعٍ منك تَهْتانا *

البيتين اللذيْن تقدّم ذكرُهما فى أخبار أبى قَطيفة .

---

(١) الصغد ، بالصاد وبالسين : إقليم قصبته سمرقند . (عن ياقوت) .

فقال ابنُ سَيْحان يَعتذر من ذلك :

فإن كان نادَى دَعْوةً فسمعتُها فشَلَّتْ يدى واستَكَّ منِّى المَسامعُ
وإلّا فكانتْ بالذى قال باطلاً ودارتْ عليه الدَّائراتُ القَوارِع
يلومُوننى أن كنتُ فى الدار حاسراً وقد فَرَّ عنه خالدٌ وهو[1] دَارع

فقال بعضُ الشعراء يُجيبه :

فإنك لم تَسمع ولكن رأيتَه بعينَيك إذ مَجْراك فى الدَّار واسعُ
وأسلمتَه للصَّغْد تَدْمَى كُلومُه وفارقْتَه والصوتُ فى الدار شائع
فلا زلتُما فى غُلِّ سَوْءٍ بِعِبْرةٍ ودارتْ عليكم بالشَّمات القَوارع

ولما قُتل سعيد بن عثمان بن عفَّان قالت أُمه[2] : أشتهى أن يرثيَه شاعرٌ كما فى نفسى حتى أُعطيه ما يحتكم . فقال ابنُ أرطاة :

إن كنتِ باكيةً فتًى فابكى هَبِلْتِ[2] على سَعيدِ
فارقتَ أهلَكَ بَغْتَةً وجلبتَ حَتْفك من بعيد
أَذْرِى دموعَكِ والدِّما ءَ على الشَّهيد ابن الشهيد

فقالت : هكذا كنت أَشتهى أن يُقال فيه ، ووصلت ابنَ أرطاة، وكانت تندُبه بهذا الشعر .

هو وابن أبى معيط فى رثاء سعيد بن عثمان

وقيل : جلس ابنُ أرطاة بن سَيحان وخالدُ بن عُقبة بن أبى مُعَيط بعد قَتْل سَعيد بن عُثمان بن عفّان يتحدّثان ، فجرى ذِكْرُه فبكيا عليه ، فقال ابن سَيحان يَرثيه :

ألَا إنَّ خَير الناس إن كنتَ سائلاً سعيدُ بن عُثمانَ القتيلُ بلا[3] ذَحْلِ

(١) الدارع : لابس الدرع .
(٢) هبلت : ثكلت .
(٣) الذحل : الثأر .

تَداعتْ عليه عُصْبةٌ فارسيَّةٌ فأَضْحَى سعيدٌ لا يُمِرُّ ولا يُحْلِي

وقال خالد بن عُقبة :

ألاَ إنَّ خَيرَ الناسِ نفساً ووالداً سعيدُ بن عُثمانٍ قَتيلُ الأعاجمِ
بكتْ عينُ من لم يَبْكه وَسْطَ يَثْرِبٍ يدَ الدَّهر[1] منه بالدُّموع السواجم
فإن تكُن الأيام أَرْدت صرُوفُها سعيداً فمَنْ هذا من الموت[2] سالم

أراد ابن عم له على شرب الخمر

وقيل : دخل ابنُ سَيحان على ابن عَمٍّ له يقال له : الحارث بن سَرِيع ، فوجده يَشرب نبيذاً لَزيبيب . فجعل يَعظه و يأمره بشُرب الخمر ، وقال له : يابن سَريع ، إن كنت تَشربه على أن نَبيذ الزبيب حلالٌ فأنت أحمق ، و إن كنتَ تَشربه على أنه حرام تَستغفر اللهَ منه وتَنْوى التوبة ، فاُشرب أَجوده ، فإن الوِزْر واحد . ثم قال :

دَعِ ابنَ سَرِيعٍ شُرْبَ ما مات مَرةً وخُذْها سُلافاً حَيَّةً مُزَّةَ الطَّعْمِ
تَدَعْك على مُلْك ابن ساسان والياً إذا حَرَّمت قُرَّاؤنا حَلَب الكَرْم
فَشتّان بين الحيِّ والمَيْت فاعْتزِمْ على مُزَّة صَهْباء رَاووقها يَهْمِي
فإنَّ سَرِيعاً كان أوصى بحُبِّها بَنيه وعَمِّى جاوز اللهُ عن عَمِّى
ألا ربَّ يوم قد شهدتُ بنى أَبى عليها إلى أن غابَ تاليةُ[3] النَّجم
حَسَوْها صلاةَ العَصْر والشمسُ حَيَّةٌ تُدَار عليهم بالصَّغير و بالضَّخْم
فماتُوا وعاشوا والمُدامة بينهم مُشَعْشعة كالنَّجْم تُوصَف بالوَهم

منادمته الوليد ابن عقبة

وقيل : كان ابن سَيْحان يُنادم الوليدَ بن عُقبة بن أبى مُعَيط و يشرب معه الخمر ، وهو القائل له :

(١) يد الدهر : كلمة يراد بها الدوام .
(٢) هذه رواية التجريد . وعليها الإقواء . وفى بعض أصول الأغانى :
* سعيدا فمن هذا عليها بسالم *
(٣) تالية النجم : آخرها .

إصْبَحْ نَدِيمَك من صَفْراء صافيةٍ ... حتّى يروح كريماً ناعمَ البالِ
واشربْ هُدِيت أبا وَهْبٍ مُجاهَرةً ... واخْتَلْ فإنك من قوم أُولى[1] خالى
أنت الجوادُ أبا وَهْبٍ إذا جَمَدتْ ... أيدى الرجالِ بما تَحْويه من مال
لما تَواصَوْا بقَتْلِى قُمْتُ مُعتزماً ... حتى حَمَيْتُ من الأعداء أَوْصالى
عمَّ الوليدُ بمعروفٍ عَشيرتَه ... والأَبْعدون حَظُوا منه بإفضال

حماية الوليد له وشعره فيه

وكان ابن سَيحان قد ضرب رجلاً من أخواله بالسيف فقطع يده، ولم تقُم عليه بيِّنة، فتآمر به القومُ ومَنع منه ابنُ خالٍ له، وخاف الوليدُ بن عُقبة أن يرجع إلى المدينة هارباً منهم وخوفاً من جنايته عليهم فيفارقَه وينقطع عنه، فدعاهم وأرضاهم وأعطاهم ديةَ صاحبهم. فلم يزل عند الوليد حتى عُزل، وهو نَديمُه وصفيّه. وهو القائل فى الوليد:

بات الوليدُ يُعاطينى مُشعشعةً ... حتى هَوَيْتُ صَريعاً بين أصحابِى
لا أستطيع نُهوضاً إن هَممتُ به ... وما أُنَهْنَهُ عن حَسْو وتَشْراب
كأننى من حُمَيَّا كأسِه جَمَل ... صَحَّت قوائمُه من بَعد أوصاب

هو وسعيد بن العاص فى وصفه للخمر وما كان من معاوية

وذُكر أنه دخل عبدُ الرحمن بن سَيحان بن أرطاة على سَعيد بن العاص، وهو أمير المدينة، فقال له: ألست القائل:

إنّا لنشربُها حتى تَميلَ بنا ... كما تَمايل وَسْنانٌ بوَسْنانِ

فقال له عبدالرحمن: مَعاذَ الله أن أشربَها وأنعتَها! ولكنّى الذى أقول:

سَموتُ بحِلْمى للطِّوالِ من الذُّرَى ... ولم تَلْقَنى كالنَّسْر فى مُلْتقَى جَدْبِ
إذا ما حَليفُ القوم أقْعى مكانَه ... ودَبَّ كما يَمْشى الكَسيرُ[2] على[3] نَقْب

(١) الخال: الخيلاء والكبر.
(٢) فى بعض أصول الأغانى: «الحسير». وهو المعى.
(٣) النقب: رقة الأخفاف.

وَهَصْتُ[1] الحَصَى لا أرهبُ الضيمَ قائماً إذا أنا راخَى لى خِنـــاقى بنو حَرْب

وقام يجُرُّ مِطْرَفَه بين الصفَّين حتى خَرج . فأقبل عمرو بنُ سـعيد على أبيه فقال : لو أمرتَ بهـذا الـكلب فضُرب مائتى سَوْط لـكان خيراً له . فقـال : يا بُنى، أَضربُه وهو حَليف حَرْب بن أُمية ! ومعاويةُ خليفةٌ بالشأم ! إذاً لا يرضى . فلمّا حجَّ معاويةُ بن أبى سفيان لقيه بمنَى ، فقال : إيهٍ يا سـعيد ! أَمرك أحمقُك أن تضرب حَليفى مائة سوط ! أَما والله لو جلدتَه سوطاً لجلدتُك سوطين ! فقال له سعيد : ولم ذلك؟ أولم تجلدْ أنت حليفَك عمرو بن جَبَلة ؟ فقال له معاوية : هو لحمى آكلُه ولا أُوكله . وكان ابنُ سَيْحان قد قال :

لا يَعْدَمَنِّى نَدِيمى ماجـداً أَنِفاً لا قائلاً خالطاً زُوراً ببُهتـانِ
أُمْسِى أُعاطيـه كأساً لذَّ مَشْربُها كالمِسْكِ حُفَّت بِنِسْرينٍ وريْحان
سَبيئةً[2] من قُرى بَيْروت صافيةً أو التى سبِئَت من أرض[3] بَيْسَان
إنا لنَشْربها حتى تَمِيـــل بنا كما تَمـايل وَسْنان بوَسْنان

(١) الوهص : الدق والكسر .
(٢) بيسان : مدينة بالأردن ، بين صوران وفلسطين .
(٣) السبيئة : الخمر تشتريها لتشربها .

أخبار ابن ميّادة

نسبه

واسمه الرَّمّاح بن أَبْرَد بن ثَرْيان[1] بن سُراقة بن حَرْملة . وقيل : ثَرْيان ابن سُراقة بن قيس بن سَلْمى بن ظالم بن جَذِيمة بن يَرْبوع بن غَيْظ بن مُرّة بن عَوْف بن سَعْد بن ذُبْيان بن بَغِيض بن رَيْث بن زيد بن غطفان بن سَعد بن قَيْس بن عَيلان بن مُضَر بن نِزار بن معدّ بن عَدنان .

وأُمّه ميّادة ، أم ولدٍ بَرْبريّة . وقيل : صَقْلَبيّة .

ويُكنى أبا شُرَحْبِيل . وقيل : أبا شَرَاحيل .

وقيل : كانت أُمه فارسيّة . وفى ذلك يقول :

أنا ابْنُ أبى سَلْمى وجَدّىَ ظالِمٌ ... وأُمِّى حَصَانٌ أَخْلصتْها الأعاجمُ

أليس غلامٌ بين كِسْرى وظالمٍ ... بأكرمِ مَن نِيطَتْ عليه التمائم

من خبر أمه

وكانت مَيَّادةُ هذه لرجل من كَلْب، زوجةً لعبدٍ له يقال له : نَهْبل. فاشتراها بنو ثَرْيان فأقبلوا بها من الشأم ، فلما قَدِموا وصَبَّحوا بها المُلَيْحةَ . ماءة لبنى سَلْمى نَظر رجل من بنى سَلْمى إليها وهى ناعسة تَمايلُ على بعيرها ، فقال : ما هذه ؟ قالوا :اشتراها بنو ثَرْيان . قال : وأبيكم ، إنَّها لميّادة تَميد وتَميل على بعيرها . فغلب عليها « ميّادة » .فوقع عليها أبرد بن ثَرْيان فأتتْ بالرَّمّاح ؛ وكان أبردُ يَرْعى على إخوته وأهله ، وكان ضِلَّةً[2] من الضِّلَل ، ورِثَّةً من الرِّثَث[3] ، جِلْفاً لا تَخْلُص إحدَى يديه من الأُخرى ، وإخوتُه كلّهم كانوا ظُرفاء غيرَه . ولمّا حَملت ميّادة

(١) هذه رواية الأصل . وفى أكثر أصول الأغانى : « ثوبان » هنا وفيما سيأتى .

(٢) الضلة : الذى لاخير فيه .

(٣) الرثث : سفلة الناس وضعفاؤهم .

بالرمَّاح سألوها : لمَن ما فى بَطْنك ؟ قالت : لأَبْرد . وسألوا أَبْرَدَ ، فجعل يسكُت ولا يُجيبهم. ولمّا أتتْ بالرمَّاح، ورأَوْه نَجِيباً، أَقرّ به أَبردُ . فبنَوْا لميّادة بيتاً وأَقعدُوها فيه . فجاءت بعد الرّمّاح بثريان ، وخليل، و بَشير ، بنى أَبْرَدَ . وكانت أولَ نسائه وآخرَهنّ ، وكانت امرأةَ صِدْق ، وما رُميت بشىء ولا سُبَّت إلا بنَهْبل ، وهو العَبد الذى كانت مزوَّجة به .

لابن جهيم يهجوه ورده عليه وفخره بوالديه

وقال عبدُ الرحمن بن جُهَيم الأَسدىّ فى هجائه ابنَ ميّادة :

لعمرِى لئن شابتْ حَليلةُ نَهْبلٍ ... لبئْس شَبابُ المرء كان شَبابُها
ولم تَدْرِ حَمْراء العِجان أَنَهْبلٌ ... أبوه أم المُرِّى تَبَّ تَبابُها (١)

وقال ابن ميّادة يفخر بأُمه :

أنا ابنُ ميّادةَ تَهْوِى نُجُبى ... صَلْتُ الجَبِين حَسَنٌ مُرَكَّبِي (٢)
تَرفعُنى أُمّى ويَنْمِينى أَبى ... فوق السَّحاب ودُوَيْن الكوكبِ

وقال أيضاً يفخر بنَسب أبيه فى العرب وأُمه فى العجم :

لو أنّ جميعَ النّاسِ كانوا بتَلْعةٍ ... وجئتُ بجدِّى ظالمٍ وابنِ ظالمِ
لظلّت رِقابُ الناسِ خاضعةً لنا ... سُجوداً على أقدامنا بالجَماجِم
أليس غلامٌ بين كِسْرى وظالمٍ ... بأَكرمِ من نِيطَتْ عليه (٣) التّمائمُ

وقد تقدّم ذكرُ هذا البيت الأخير (٤) .

---

(١) العجان : الدبر . وكان العرب إذا سبوا الأعجمى قالوا له : يابن حمراء العجان . وتب تبابها : دعاء عليها بالخسران والهلاك .

(٢) النجب : جمع نجيب ، وهو كل كريم عتيق ، بعيراً أو فرساً . وصلت الجبين : واضحه مشرقه . ومركبه ، أى جسمه .

(٣) فى البيت إقواء ، وهو اختلاف حركة الروى فى الإعراب .

(٤) انظر (ص ٣٥٦) من هذا الجزء .

وسمع الفرزدقُ البيتين الأوّلين ، فقال لراويته أضْمُمهما إليك . وجعل مكان « ظالم » « دار ما » ، وأدعاها ، وذلك بمَحضر ابن ميّادة ، فلم يُنكر عليه[1] .

من وصفه

قيل :

وكان ابن ميّادة أحمرَ سَبْطاً[2] ، عظيم الخَلْق ، طويلَ اللِّحية ، لبّاساً عَطِراً . وكان فصيحاً يُحتجُّ بشعره . وهو مُخَضرم الدَّولتَين : الأُموية والعبّاسيَّة . مَدح من بنى أُمية الوليدَ بن يزيد ، وعبدَ الواحد بن سُليمان بن عبد الملك ؛ ومَدح من بنى العبّاس أبا جَعفرٍ المنصور ، وجعفر بن سُليمان بن علىّ بن عبد الله بن العبّاس .

نسبه بأم جحدر وشعره فيها

وكان يَنْسُب بأُم جَحْدر بنت حسّان المُرِّية ، إحدى نِساء بنى جَذِيمة . فخلف أبوها ليُخرجنّها إلى رجلٍ من غير عشيرته ولا يُزوّجها بنَجد . فقَدِم عليه رجلٌ من أهل الشأم ، فزوّجه إيّاها ، فلَقِى عليها ابنُ ميّادة شدّة . فلما خرج بها زوجُها إلى بلاده اندفع ابن ميّادة يقول :

ألا ليتَ شِعْرِى هل إلى أُمِّ جَحْدَرٍ ... سَبيلٌ فأمّا الصبرُ[3] عنها فلا صَبْرَا
إذا نزلت بُصْرَى تَرَاخَى مَزَارُها ... وأغلقَ بَوّابانِ مِن دُونها قَصْرا
فلو كان نَذْرٌ مُدْنِياً أُمَّ جَحْدَرٍ ... إليّ لقد أوْجَبْتُ فى عُنُقِى نَذْرا
ألَا لا تَلُطِّى السِّتْرَ يا أُمَّ جَحْدرٍ ... كفى بذُرَا الأعلام مِنْ دُوننا سِتْرا
لَعَمْرِى لئن أمسيتِ يا أُمَّ جَحْدرٍ ... نأيتِ لقد أبليتُ فى طَلَب عُذْرا
فَبِهْراً لقومى إذ يَبيعون مُهْجتى ... بجاريةٍ بِهْراً لهم بَعدها بَهرا

---

(١) يريد بيتى الفرزدق :

لو ان جميع الناس كانوا بتلعة ... وجئت بجدى دارم وابن دارم
لظلت رقاب الناس خاضعة لنا ... سجوداً على أقدامنا بالجماجم

(٢) السبط : الطويل الحسن القد .

(٣) يجوز فى « الصبر » النصب على أن مفعول له ؛ والرفع على أنه مبتدأ . (انظر الكتاب لسيبويه ١ : ١٩٣) .

حديث عشقه لها

وحكى رجلٌ من غَطَفان قال :

كنّا بباب بعضِ الوُلاة بالمدينـة ، فغَرِضْنا[1] من طُول الثَّواء ، فإذا أعرابىّ يقول : يا معشرَ العرب ، أمَا فيكم رجلٌ يأتينى أُعلِّله إذ غَرِضْنا من هذا المـكان ، فأُخبره عن أُمّ جَحْدرٍ وعنِّى ؟ فجئتُ إليـه فقلتُ : مَن أنتَ ؟ قال أنا الرّمّاح بن أَبرد . قلتُ : فأَخْبرنى ببَدْء أَمركما . قال : كانت أُمّ جَحْدر من عَشيرتى فأعجبتْنى ، وكانت بينى و بينها خُلّة ، ثم إنّى عَتبتُ عليها فى شىء بلغنى عنها ، فأتيتُها فقلتُ : يا أُم جحـدر ، إنّ الوَصْل عليك مَرْدود . قالت : ما قَضى الله فهو خَير . فلَبِثتُ على تلك الحال سنة ، وذهبتْ بهم نُجْعةٌ فتباعدوا ، واشتقتُ إليها شوقاً شديداً ، فقلتُ لامرأة أخٍ لى : والله لئن دنتْ دارُنا من أُم جَحدرٍ لآتينَّها ولأطلبنّ إليها أن تردَّ الوَصْل بينى و بينها ، ولئن ردّته لا نَقضتُه أبداً . ولم يكن يومان حتى رَجعوا . فلما أصبحتُ غدوتُ عليهم فإذا ببيتين نازلَين إلى سَنَدٍ أبرقَ[2] طويلٍ ، و إذا امرأتان جالستان فى كِساء واحدٍ بين البيتين ، فجئتُ فسلّمت ، فردّت إحداهما ولم تَرُدّ الأُخرى . فقالت : ما جاء بك يا رمّاح إلينـا ؟ ما كنّا حَسِبنا إلّا أنه قد انقطع ما بيننا و بينك ! فقلتُ : إنّى جعلتُ علىّ نَذْراً لئن دَنتْ بأُم جَحـدر دارٌ لآتينّها ولأطلبنّ منها أن تَرُدَّ الوصلَ بينى و بينها ، ولئن هى فعلتْ لا نقضتُه أبداً . و إذا الذى تُـكلِّمنى امرأةُ أخيها ، و إذا الساكتةُ أُم جَحـدر . فقالت امرأةُ أخيها : فادخُلْ مُقـدَّم البيت . فدخلتُ ، وجاءتْ فدخلتْ من مُؤخَّره ، فدنتْ قليلا ، ثم إذا هى قد بَرَزَتْ . فساعةَ برزتْ جاء غُرابٌ فنَعب على رأس الأَبْرق . فنظرتْ إليه وشَهقتْ وتغيَّر وجهُها . فقلتُ : ما شأنكِ ؟ قالت : لا شىء . قلت : بالله إلا أَخبرتِنى . قالت : أرى هذا الغراب يُخبرنى أنّا لا نَجتمع بعد هـذا اليوم

---

(١) غرضنا : ضجرنا .

(٢) السند : ما ارتفع من الأرض . والأبرق : ما كان له لونا ن : سواد وبياض .

إلّا ببلد غير هـذا البلد . فتقبّضت نفسى ثم قلتُ : جاريةٌ والله ما هى فى بَيْت عِيافة[١] ولا قِيافة[٢] . فأقمتُ عندها ثم تزوّجتُ إلى أهلى فمكثتُ عندهم يومين ، ثم أصبحتُ غادياً إليها . فقالت لى امرأةُ أخيها : وَيْحك يا رمّاح ! أين تذهب ؟ فقلت : إليكم . فقالت : وما تُريد ؟ قد والله زُوِّجتْ أُمُّ جَحْدر [البارحة] . فقلت : بمن؟ ويحك ! فقالت : برجل من أهل الشأم من أهل بيتها ، جاءهم من الشأم فخَطبها فزوّجها وقد حُملت إليه . فمضيتُ إليهم ، فإذا هو قد ضَرب سُرادقاتٍ . فجلستُ إليه فأنشدتُه وحدّثته ، وعُدت إليه أيّاماً . ثم إنه احتملها فذهب بها . فقلت :

أجارتَنا إنّ الخُطوب تَنُوبُ ... علينا وبعضَ الآمنين تُصيبُ
أجارتَنا لستُ الغَداةَ ببارحٍ ... ولكنْ مُقيمٌ ما أقام[٣] عَسِيب
فإن تسأليني هل صَبَرْتَ فإنّنى ... صَبُورٌ على رَيْب الزمانِ صَلِيب
جَرى بأُ نْبتات الحَبْل من أُم جَحْدرٍ ... ظِباءٌ وطيرٌ بالفِرَاقِ نَعُوب
فقالت حرامٌ أن نرَى بعد هذه ... جَمِيعَيْن إلا أنْ يُلِمَّ غَريب
أجارتَنا صبراً فيارُبَّ هالكٍ ... تَقَطّعُ من وَجْدٍ عليه قُلوب

ثم انحدرتُ فى طلبها ، وطمعتُ فى كلمتها : « إلّا أن نَجتمع فى بلد غير هذا البلد» فَدُرْتُ الشّأمَ زماناً ، فتلقّانى زوجُها . فقال : مالك لا تغسِل ثيابَك هذه ! أرسل بها إلى الدار تُغسل . فأرسلتُ بها . ثم إنى وقفتُ أنتظرخُروج الجارية بالثياب، فقالت أُم جَحدر لجاريتها : إذا جاء فأَعْلِمينى . فلما جئتُ إذا أُم جَحْدرٍ وراءَ البـاب ، فقالت : ويحكَ يا رَمّاح ! قد كنتُ أحسَب أنّ لك عقلًا ! أمَا تَرى أمراً قد حِيل

(١) العيافة : زجر الطير ثم التفاؤل بأسمائها و ممرها . والمعروف بالعيافة من العرب : بنو أسد وبنو لهب ، من الأزد .

(٢) القيافة : تتبع الآثار ومعرفتها . والمعروف بالقيافة من العرب : بنو مدلج قبيلة من كنانة.

(٣) عسيب : جبل بعالية نخلة . ويقال : لا أفعل كذا ما أقام عسيب ، أى لا أفعله أبداً .

دونه وقد طابتْ أنفسُنا عنه ؟ أنصرف إلى عَشيرتك فإنى أستحيي لك من هـذا المُقام . فانصرفتُ وأنا أقول :

عَسَى إنْ حَجَجْنا أَنْ نَرى أُمَّ جَحْدرٍ ... ويَجمَعنا مِن نَخْلَتَيْن[1] طَرِيقُ
وتَصْطكَّ أَعضـادُ المَطِيِّ و بَيْننا ... حَديثٌ مُسَرٌّ دونَ كلِّ[2] رفِيق

والبيتان الأوّلان، من الأبيات البائية، أغار ابنُ ميَّادة على معنييهما[3] ، وهو بيت قاله أمرؤ القيس بأَنْقرة ، وهو :

أجارتَنـا إنَّ الخُطوب تَنُوبُ ... وإنِّى مُقيمٌ ما أَقام عَسِيبُ

والبيت الثالثُ لشاعر من شعراء الجاهليَّة أغار عليه ابنُ ميّادة فَسرقه برُمّته ونَقله نقلاً ، وقد تمثّل به عليُّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى رسالة كَتب بها إلى أخيه عَقِيل بن أبى طالب .

من شعره فى أم جحدر

ومما قاله ابنُ ميَّادة فى أُمّ جَحدر و يُغنَّى فيه :

ألا يا لَقَوْمى للهَوى والتذكُّرِ ... وعينٍ قَذَى إنسانِها أُمُّ[4] جَحْدرِ
فلم تَرَ عَيْنِي مثـلَ قلبِيَ لم يَطِرْ ... ولا كضُلوعٍ فوقَه لم تُكَسَّر

ذكر

بعض ما وقع من التَّهاجى بين ابن ميَّادة والحَكَم الخُضْرى .

قد طوّل أبو الفَرج القولَ فى ذلك ، فنذكُر بعضه :

تلاحيا فى بيتين

قيل : إنه حَكَم بن مَعْمَر بن قَنْبَر بن جِحَاش بن سَلَمَة بن ثَعْلبة بن مالك ابن طَرِيف بن مُحارِب ـ والخُضْر: ولدُ مالِك بن طَرِيف، [سُمُّوا بذلك] لأن مالكاً

(١) النخلتان : واديان عن يمين بستان ابن عامر وشماله .
(٢) فى البيت إقواء ، وهو اختلاف حركة الروى فى الإعراب .
(٣) فى بعض أصول الأغانى : « نصفيهما » .
(٤) يريد أن أم جحدر سبب جريان دموعه ، شأن القذى فى العين فإنه يسيلها .

كان شديدَ الأُدْمة ، وكذلك خرج ولدُه فسمُّوا الخُضْر لذلك — نزل بسُمَير ابن سَلَمة بن عَوْسَجة بن أَنَس بن يَزيدَ بن مُعاوية بن ساعدةَ بن عَمْرو ، وهو خُصَيلة بن مُرّة . فأقبل ابنُ ميّادة إلى حَكَم الخُضْرِىّ ليعرضَ عليه شعرَه وليسمعَ من شعره . وكان حَكَم أسَنَّهما . فأنشدا جميعاً جماعةَ القوم . ثم قال ابنُ ميّادة : والله لقد أعجبنى بيتان قُلتَهما يا حَكَم . قال : أَوَما أعجبك من شِعرى إلّا بيتان ! فقال : والله لقد أعجبانى . يردِّد ذلك مراراً لا يزيد عليه . فقال له حَكَم : فأىُّ بيتَيْن هما ؟ قال : حين تُساهم بين ثَوْبَيْها وتقول :

فو الله ما أدرِى أَزِيدتْ مَلاحةً وحُسْناً على النِّسوان أم ليس لى عَقْلُ
تَساهَمَ ثوباها ففى الدِّرع رَأْدةٌ وفى المِرْط لفّاوانِ رِدْفُهما عَبْل[1]

فقال له حَكَم : أَوَما أَعْجَبَكَ غيرُ هذين البيتَيْن ؟ فقال له ابنُ ميّادة : قد أَعْجبانى . فقال : أَوَما فى شِعْرى ما أَعْجبك غيرهما ؟ فقال: لقد أَعجبانى . فقال له حَكَم : فإنى سوف أَعيب عليك قولك :

ولا بَرِح المَمْدور[2] ريّانَ مُخْصِباً وجِيدَ[3] أَعالِى شِعْبِه وأسافلُهْ

فاستسقيتَ لأعلاه وأسفلَه[وتركتَ وسطَه ، وهو خير موضع فيه] . فقال: وأىَّ شىء تُريد ؟ تركتُه لا يزال ريّان مُخْصِبا . وتهاتَرَا . فغضِب حَكَم فارتحل ناقتَه وهَدر[4] ثم قال :

* فإنه يومُ قَريضٍ ورَجزْ *

فقال رجلٌ من بنى مُرة لابن ميّادة : أُهْدِر كما هَدَر يا رمّاح . فقال : إنما يَغِطّ[5] البَكْر .

(١) تساهم ثوباها : تقارعا وتقاسما . والرأدة : الشابة الحسنة السريعة الشباب مع حسن غذاء . والمرط : كساء يؤتزر به . واللفاء : الفخذ الضخمة .
(٢) الممدور : موضع فى ديار غطفان . (٣) جيد : سقى مطراً جودا ، أى غزيراً .
(٤) هدر : صوت كما يصوت الفحل . (٥) يغط : يهدر فى شقشقة .

ثم قال الرّماح :

فإنَّه يومُ قريضٍ ورَجـــز مَن كان منكم ناكزاً فقد نَكَزْ
وبيَّن الطِّرْفُ النَّجيبُ فَبرَز

فهذا أول ما هَاج التَّهاجى بينهما .

قصيدته فى هجاء الحكم

ومما هجا ابْنُ ميَّادة به الحَكَم الخُضرى قصيدتُه التى يَنْسُب فيها بأُم جَحْدر ، وأوّلُها :

يُمنُّوننى منكِ اللِّقـــاء وإنّنى لأَعْلمُ لا ألقـــاكِ من دون قابِل

يقول فيها :

مِن الصُّفرِ لا وَرْهاء سَمْجٌ دَلالُهـــا وليستْ من السُّود القِصَار[1] الحوائل
ولكنهـــا ريحـــانةٌ طاب نَشْرُها وردتُ عليهـــا بالضُّحَى والأَصـــائل

ومنها :

فياليتَ رَثَّ الوَصْلِ من أُم جَحْـدر لنا بجـــديدٍ مِن أُولاكَ البَـــدائل
فلم يَبْقَ ممّا كان بينى وبينهـــا من الوُدِّ إلّا مُخْفَيَـــات الرســائل
وإنّى إذا استَنْبَهتُ من حُلْوِ رَقْدةٍ رُمِيتُ بحُبِّيها كرَمْيِ المناضِل
فما أَنْسِ مِ الأشياء لا أنسَ قولَهـــا وأدمُعهـــا يُذْرِينَ حَشْوَ المَكاحِل
تَمَتَّعْ بذا اليومِ القصـــيرِ فإنَّه رَهِـــينٌ بأيّام الدُّهور الأَطاوِل
وكنتُ امرأً أَرْمِى[2] الزَّوائل مرّةً فأصبحتُ قد ودَّعتُ رَمْىَ الزَّوائل
إذا حلّ بيتى بين بَدْرٍ ومازنٍ ومُرَّةَ نِلْتُ الشمسَ واشْتَدَّ كاهِلى
فَضَلْنا قُريشاً غيرَ رهْطِ محمـــدٍ وغيرَ بنى مَرْوان أهلِ الفَضائل

(١) الورهاء : الحرقاء الحمقاء . والسمج : الذى لا ملاحة فيه . والحوائل : جمع حائلة ، وهى المتغيرة اللون . (٢) الزوائل ، يريد : النساء ، على التشبيه بالوحش . يقال : فلان يرمى الزوائل ، إذا كان طبا بإصباء النساء إليه .

و بلغ قولُه هذا إبراهيمَ بن هشام المخزومىّ ، فقال له : أنت فضلتَ قريشاً ! وجرَّده فضَربه أسواطاً .

وقال له الوليدُ بن يزيد بن عبد الملك : قدَّمتَ آلَ محمدٍ قبلنا . قال : ما كان يمكن يا أميرَ المؤمنين غَيْر ذلك .

فلمَّا أفضتْ الخلافةُ إلى بنى هاشم وفَد ابنُ ميَّادة إلى المَنصور ومدحه ، فقال المنصورُ، لمّادخل إليه : كيف قال لك الوليدُ ؟ فأخبره بما قال . فجعل المنصور يتعجَّب .

من تهاجيهما

ومن قصائد أبن ميَّادة التى يهجو فيها الحَكَم قصيدتُه التى يقول فيها :

تَرى بوُجوه الخضرِ خُضْرِ مُحَاربٍ ... طوابعَ لُؤمٍ ليس يَنْمَتُّ طِينُهـا
وما حَملتْ خُضريَّةٌ ذاتَ ليلةٍ ... من الدَّهر إلّا أزداد لُؤماً جَنِينُها

وأجابه الخُضرى بقصيدة منها :

فما حَملتْ مُرِّيّة قط ليلةً ... منَ الدَّهر إلّا أزداد لُؤماً جَنِينُها
وما حَملتْ إلّا لِأَلأَمِ مَن مَشَى ... ولا ذُكِرتْ إلّا بأمرٍ يَشِينُها

من هجاء ابن ميادة

ومما قاله أبنُ ميّادة فى الحَكَم الخُضْرى قصيدتُه التى أوّلها :

لقد سَبقتْك اليومَ عيناكَ سَبقةً ... وأبكاكَ من عَهد الشباب ملاعِبُهْ
فوالله ما أَدْرِى أيَغْلِبُنى الهَوى ... إذا جَدَّ جِدُّ البَيْن أم أنا غالبُه
فإن أَسْتطع أَغْلِبْ وإن يَغْلِبِ الهَوَى ... فمثلُ الذى لاقيتُ يُغْلَب صاحبُه

يقول فيها :

لقد طال حَبْس الوَفْدِ وَفْدِ مُحارِبٍ ... عن المَجد لم يَأْذَنْ لهم بَعْدُ حاجِبُه
وقال لهم كُرُّوا فلستُ بآذنٍ ... لكم أبداً أو يُحْصِىَ التُّرْبَ حاسبُه

وهى طويلة .

تمثل بعض ولد الحسن ولد له

وقيل : سبَّ رجلٌ من قُريش، فى أيَّام بنى أُميَّة، بعضَ ولد الحَسن بن علىّ ابن أبى طالب عليهما السلام ، فأَغلظ له وهو ساكتٌ ، والنـاسُ يتعجّبون من

صَبْره عليه ، فلما أطال أقبل الحَسَنِيّ عليه متمثِّلًا بقول ابن ميَّادة يهجُو الحَكَم الخُضرى المُحاربىّ :

أَظنَنْتَ سَفَاهاً من سَفاهة رأيها أَنَ اُهجُوَها لمّا هَجَتْنى مُحاربُ
فلا وأَبيها إنّنى بعَشِيرتى ونَفْسِىَ عن ذاك المقام لراغِب

فقام القُرشىّ خَجِلاً وما ردّ عليه جواباً .

آخر ما كان بينهما وموت الحكم

وجرتْ بينهما أهاجٍ كثيرة ، وآخر ذلك أنهما اُجتمعا واُصطلحا واُنصرفا راضيَيْن ، فركب بعضُ بنى مُرَّة إلى إبراهيم بن هِشام ، فاُستَغْضبه على الحَكَم الخُضْرى فى قوله :

وما وَلدتْ مُرِّيةٌ ذاتَ ليلةٍ من الدَّهر إلّا اُزداد لُؤماً جَنِينُها

فأَطْرَده[1] وأقسم : لئن ظَفِر به ليُسْرِجَنَّه ولَيحملِنَّ عليه أحدَهم . فقال ابنُ ميَّادة — وساءه ما صَنعوا — : عَمَدتم إلى رجل قد صَلح ما بينى و بينه فاستعديتُم عليه وجئتُم بإطراده ! و بلغ الحَكَمَ الخُضْرىَّ الخبرُ فطار إلى الشأم فلم يَبْرحها حتى مات .

وقيل : مات فى بعض أنهارها غَرَقاً ، وكان لا يُحسن العَوْم ، وهو وَجْهُه[2] الذى مَدح فيه أَسْوَد بن بلال المُحاربىّ فى قَصيدته التى يقول فيها :

واستيقنتْ ألّا رَوَاحَ من السُّرَى حتى تُنَاخ بأَسْوَدَ بنِ بِلالِ
قَرْمٌ إذا نَزل الوُفود ببابه سَمتِ العُيونُ إلى أَشَمَّ طُوَال

هو وشقران بين يدى الوليد ابن يزيد

وحكى ابنُ ميّادة قال : وصلتُ أنا والشعراء إلى الوليد بنِ يزيد وهو خليفة ، وكان مَوْلًى من مَوالى خَرَشة ، يقال له : شُقْران ، يعيب اُبنَ ميّادة و يَحْسُده على

(١) أطرده : أمر بإخراجه وطرده .
(٢) وجهه ، أى رحلته وسفره .

مكانه من الوليد، فقال الوليد لشُقْران لمّا اجتمعت الشعراء: ما عِلْمكَ بابْن ميّادة؟ قال: عِلْمى فيه يا أَميرَ المُؤمنين أنه:

لئيمٌ يُبَارِى فيه أَبْرَدُ نَهبلًا ... لئيمٌ أَتاه اللُّؤمُ من كُلّ جانبِ

فقال الوليد: يابْن ميّادة، ما عِلْمك فى شُقْران؟ فقلت: كان عِلْمى يا أمير المُؤمنين أنه عبدٌ لعَجوز من خَرَشة كاتبتْه على أربعين درهماً ووعدتْه أن تُجيزه بعشرين درهماً، فقبَّضْته إيّاها. فأَغْنِه عنّى يا أمير المؤمنين، فإنه ليس بأصلٍ أَحتقره، ولا بفَرْع أَهْتصره. فقال له الوليد: اُجْتَنِبْه يا شُقْران، فقد أَبلغ إليك فى الشَّتيمة. فقَصَر شُقْران صاغراً. ثم أنشدتُه، فأُقيمت الشعراء [جميعاً] غيرى. فأمر لى بمائة لِقْحَةٍ وفَحلها وراعيها وجاريةٍ بِكْر وفَرَس عربىّ. فاُختلتُ ذلك اليومَ وقلتُ:

أعطيتَنى مائةً صُفْراً مدامعُها ... كالنَّخْل زيَّن أعلَى نَبْته الشَّرَبُ[1]

يَسُوقُها يافِعٌ جَعْدٌ مَفارقُهُ ... مِثْلُ الغُرابِ غَذاه الصرُّ والحلب

وذا سَبِيبٍ[2] صُهَيْبِيًّا له عُرُفٌ ... وهامةٌ ذاتُ فَرْقٍ نابُها صَخِب

وهذه الأبياتُ من قصيدة يمدح بها اُبنُ ميّادة الوليدَ بن يزيد، أجاد فيها وأحسن، وأولها:

هل تَعْرِفُ الدار بالعَلْياء غَيَّرها ... سافى الرِّياحِ ومُسْتَنٌّ له[3] صَبَبُ

دارٌ لبيضاء مُسْوَدٍّ مسائحُها ... كأنها ظبيةٌ ترعى وتَنْتَصِبُ

يقول فيها:

يا أَطْيَبَ الناسِ رِيقاً بعد هَجْعَتها ... وأملحَ الناسِ عَيْناً حين تَنْتَقِب

ليستْ تجودُ بنَيْلٍ حين أسألُها ... ولستُ عند خَلاء اللَّهو أَغْتصب

---

(١) المدامع: المآقى. وذكر أبو حنيفة الدينورى أن الماشية تصفر إذا رعت ما يخضر من الشجر، ترى مغابنها ومشافرها وأوبارها صفرا. والشرب: جمع شربة، وهى ما يحفر حول الشجرة كالحويض ويملأ ماء فتتروى منه. (٢) السبيب: شعر الذنب والناصية. يريد الفرس المهدى إليه.

(٣) المستن: المنصب، يريد مطراً. والصبب: الهاوى فى تدفق. وفى بعض أصول الأغانى: «طنب» مكان «صبب».

فى مِرْفَقَيْهـــا إذا ما عُونقت جَمَم على الضَّجيع وفى أَنْيـــابها[1] شَنَب

ومنهـا :

إلى الوليـــد أبى العبّاس ما عَجِلتْ ودونَه المُعْطُ من نَيَّـانَ[2] والـكُثُب
لمـــا أتيتُكَ من نَجدٍ وســـاكِنه نَفحتَ لى نفحةً طارتْ بهـا العَرب
إنّى امرؤٌ أَعْتفِى الحـاجاتِ أطلُبهـا كما اُعتفى سَنِقٌ يُلْقَى له[3] العُشُب
ولا أُخادع نَدْمانى لأَخـــدَعَه عن ماله حين يَسْـترخى به[4] اللَّبَب
ولا أُلِحّ على الخُلّان أسـألهُم كما يُلِحّ بعظْم الغـارب[5] القَتَب
وأنتَ وابنـاكَ لم يُوجد لـكم مَثَـلٌ ثلاثةٌ كلّكم بالتّـــاج مُعْتَصب
الطيّبون إذا طابتْ نفُوسُهمُ شُوسُ[6] الحواجِبِ والأبصار إن غَضِبوا
قِسْنِى إلى شُـعراء النّـاس كلِّهمِ وادْعُ الرُّواة إذا ماغَبّ[7] ما اُحْتَلبوا
إنّى وإنْ قال أقوامٌ مـديحَهُمُ فأَحْسـنوه وما حابُوا وما كَذَبوا
أجرى أمامَهُم جَرْىَ امرىء[8] فَلَج عِنـانُه حين يَجْرِى ليس يَضْـطرب

شعره فى الحنين إلى وطنه وحديث الوليد معه

وحكى ابنُ ميّادة قال : قلت وأنا عنـد الوليد بن يزيد بأبَاين ، وهو موضع كان ينزله فى الرَّبيع :

(١) الجمم : كثرة اللحم . والشنب : ماء ورقة يجرى على الثغر .
(٢) أبو العباس : كنية الوليد بن يزيد . والمعط : جمع معطاء ، وهى الأرض الجرداء . ونيان : موضع قرب تيماء . وفى بعض أصول الأغانى : « لبنان » .
(٣) أعتفى : أطلب . والسنق : الذى قد شبع حتى بشم .
(٤) الندمان : المنادم على الشراب ، وكذلك هو كل رفيق ومصاحب . واللبب : البال . واسترخاء البال : دليل الرخاء والسعة . ومنه : فلان فى لبب رخى . وأصل اللبب : مايشد على صدر الدابة أو الناقة .
(٥) الغارب : الكاهل . والقتب : إكاف البعير .
(٦) شوس : ينظرون بمؤخر العين تكبراً وتغيظاً . الواحد : أشوس .
(٧) غب : فسد وردؤ . وما اجتلبوا ، أى ماساقوه .
(٨) فلج ، بالفتح وحرك الشعر : ظافر فائز .

لعَمْرك إنّى نازلٌ بأبانين لصَوْءَرَ[١] مُشْتاقٌ وإنْ كنتُ مُكْرَما
أَبِيتُ كأنّى أرمَدُ العين ساهرٌ إذا بات أصحابى من اللّيل نُوَّما

فقال لى الوليد : يابنَ ميّادة ، كأنك غَرِضْتَ[٢] من قُرْبنا ! فقلت : ما مثلك يا أمير المؤمنين يُغْرَض من قُربه ، ولكن :

ألا ليتَ شِعْرى هل أبيتنّ ليلةً بحرّةِ ليلَى حيثُ ربَّبنى[٣] أهلِى
وهل أَسمعنّ الدهرَ أصواتَ هَجْمةٍ تَطَالَعُ من هَجْلٍ خَصِيبٍ[٤] إلى هَجْل
بلادٌ بها نِيطَتْ علىّ تمائمى وقُطِّعن عنّى حين أدركنى عَقْلى
فإن كنتَ عن تلك المَواطن حابِسى فأَيْسِرْ علىَّ الرِّزْق وأْجمع إذاً شَمْلى

فقال : كم الهَجْمة ؟ قلتُ : مائة ناقةٍ . قال : قد صَدَرْتَ بها كُلِّها عُشَراء[٥] . قال : أبنُ ميّادة : فذكرتُ وِلْداناً لى بنَجد إذا أستطعموا اللهَ عزّ وجلّ أَطعمهم الله وأنا ، وإذا استَسْقَوا الله سقاهم الله وأنا ، وإذا اسْتَكْسَوْا اللهَ كَساهُم الله وأنا . فقال: يابنَ ميّادة ، وكم وِلْدانُك ؟ فقلتُ : سَبعةَ عَشَر ، منهم عشرةُ نَفَر وسبعُ نِسْوة . فذكرتُ ذلك منهم ، فأَخذ بِقلبى . فقال : يابن ميّادة ، قد أَطعمهم الله وأميرُ المؤمنين ، وسقاهم الله وأميرُ المؤمنين ، وكساهم الله وأميرُ المؤمنين . أمّا النّساء فأربعُ حُللٍ مُختلفاتُ الألوان ، وأمّا الرجالُ فثلاثُ حُلل مختلفاتُ الألوان . وأمّا السِّقْى فلا أرى مائة لِقْحةٍ إلّا ستُرويهم ، فإن لم تُرْوهم زِدْتُهم عينَيْنِ من الحِجاز . قلتُ : يا أمير المُؤمنين ، لسنا بأصحاب عُيون يأكلُنا بها

(١) صوءر : ماء لكلب على مسافة يوم من الكوفة .
(٢) غرضت : ضجرت .
(٣) ربيه : رباه .
(٤) الهجمة : القطعة الضخمة من الإبل . والهجل : المطمئن من الأرض .
(٥) العشراء : الناقة أتى على حملها عشرة أشهر .

البَعُوض ، وتأخذنا بها الحُمَّيَات . قال : فقد أخلفها الله عليك ، لك كُلَّ عام فيه مثلُ ما أعطيتُك العامَ : مائة لِقْحةٍ وفَحْلُها وجاريةٌ وفَرس عَتيق .

أراد بشر كلب إبدال ما أجازه الوليد فقال شعراً

وقيل : إنّ الوليدَ بن يزيد لمّا أمر لابن ميّادة بالمائة من الإبل جَعلها على صَدَقات بنى كَلْب . فلمّا أتى الحَوْلُ أرادوا أنْ يبتاعوا له من الطّرائد ، وهى الغرائب ، وأنْ يُمسكوا التِّلاد[1] ، فقال ابنُ ميّادة :

ألم يَبْلُغْك أنّ الحىَّ كَلْباً ... أرادوا فى عَطيّتكَ ارتدادَا
وقالوا إنّها صُهْبٌ ووُرْقٌ ... وقد أعْطَيتها دُهُماً[2] جِعادا

فعلِموا أن الشعر سيبلغُه فيُغضبه ، فقالوا : انطلق فخُذْها صُفْراً جِماداً .

رثاؤه للوليد ابن يزيد

ولمّا قُتل الوليدُ بن يزيد قال ابنُ ميّادة يَرثيه :

ألَا يا لهفتَىَّ على وليدٍ ... غداةَ أصابه القَدرُ[3] المُتاحُ
ألَا بَكِّى الوليدَ فتَى قُريش ... وأسمَحها إذا عُدَّ السِّماح
وأجبرَها لذى عُظْمٍ مَهيضٍ ... إذا ضنَّتْ بدِرّتها اللِّقاح
لقد فَعلتْ بنُو مَرْوان فِعْلاً ... وأمراً ما يَسوغ به[4] القَراح

للمؤلف فى مقتل الوليد

قلت : الذى قتل الوليدَ بن يزيد ابنُ عمّه يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، واطّأه على ذلك جَمعٌ كبير لأجل فِسْقه وتهتّكه . وسيأتى ذكر مَقْتله فى هذا الكتاب.

وكانت مدة خلافته سنةً واحدةً وأشهراً . وولى الخلافة قاتلُه نحو ستة أشهر . واضطرب حَبل بنى أمية بقَتلهم الوليد ، ولم ينتظم لهم أمر بعده ، حتى أفضى الأمرُ إلى بنى العبّاس .

---

(١) التلاد : مانتج عندهم .

(٢) الصهب : التى فى ظاهر شعرها حمرة وفى أصوله سواد . والورق : التى لونها سواد فى بياض . والدهم : السود . والجعاد : الملتوية الوبر .

(٣) المتاح : المقدر . (٤) القراح : الماء الخالص لم يخالطه شىء .

هو وزينب بنت مالك

وحكى ابنُ ميّادة قال :

خرجتُ قافلاً من سَلْع[١] إلى نَجد حتى إذا كنتُ ببعض هِضاب الحرّة رُفِع لى بيتٌ كالطِّراف[٢] العظيم ، وإذا بفنائه غَنم لم تَسْرَح ، فقلت : بيت من بُيوت بنى مُرّة وبى من العَيْمة[٣] إلى اللبن ما ليس بأحد . فقلتُ : آتيهم وأُسلّم عليهم وأشْرب من لَبنهم . فلما كنتُ غيرَ بعيد سلّمتُ . فردّتْ علىّ امرأةٌ بَرْزة[٤] بفِناء البيت، وحيّت ورحّبتْ واستنزلتنى ، فنزلتُ . فدعتْ بلبن ولِبأٍ[٥] ، ورِسْلٍ من رِسْل تلك الغَنم . ثم قالت : هَيَا فُلانة ، أُلْبِسى شَفًّا[٦] وأُخرُجى . فخرجتْ علىّ جاريةٌ ما رأيتُ فى الخَلْق مثلَها قبلُ ولا بعدُ ، فإذا شَفُّها ذلك ليس يُوارى منها شيئاً، وقد نَبَا عن رَكَبها[٧] ما وقع عليه من الثَّوب، فكأنَّه قَعْبٌ[٨] مُكْفَأ ، ثم قالتْ : يا ابنَ ميّادة الخَبيثة ، أأنت القائلُ :

وتُبدى الُحميسيّاتُ فى كُل زِينة فُروجاً كآثار الصِّغار من البَهمِ

فقلتُ : لا والله — جَعلنى الله فِداك يا سيدتى — ما قلتُ هذا قطُّ ، وإنما قلت :

وتُبْدى الُحمَيْسيّاتُ فى كُلِّ زِينة فُروجاً كأمثال المُقَيسِرة[٩] الدُّهْمِ

وكان يقال للجارية الُحمَيْسِيَّة : زَينب بنت مالك . وفيها يقول ابن ميّادة قصيدتَه التى أولُها : * ألَمّا فزُورا اليومَ خَير مَزارِ *

(١) سلع : جبل قرب المدينة .
(٢) الطراف : البيت من أدم ليس له سترة فى مؤخره .
(٣) العيمة : شهوة اللبن .
(٤) البرزة : التى تبرز للناس ويجلس إليها القوم ، مع عفة وعقل .
(٥) اللبأ : أول اللبن عند النتاج . والرسل : اللبن .
(٦) الشف : الرقيق من الثياب .
(٧) الركب : الفرج .
(٨) القعب : القدح الضخم . والمكفأ : المقلوب .
(٩) المقيسرة : الإبل المسان .

يقول فيها :

نظرنا فهاجتْنا على الشَّوق والهَوى ... لزينبَ نارٌ أُوقدت بجُبَارِ
كأنّ سَناها لاح لى مِن خَصاصة ... على غير قَصْدٍ والمطِىُّ سَوَارِى
حُمَيْسِيَّةٌ بالرَّملتَين مَحَلُّهـا ... تُمُدُّ بحِلْف بيننا وجِوَار
تُجاور مِن سَهْم بن مُرَّة نِسْوةً ... بمُجتَمع النقبين غيرَ عَوَارى
نواعمَ أبكاراً كأنّ عُيونَها ... عيونُ ظِبَاءٍ أو عيونُ صُوار(١)

شعره فى جارية أعطاه إياها الوليد

وقيل : أعطى الوليدُ بن يزيد ابنَ ميّادة جاريةً طَبَرِيّةً(٢) أعجميّة لا تُفصح، حَسناء جميلةً كاملةً لولا العُجْمة ، فعَشِقها وقال فيها :

جزاكَ الله خَيراً من أمير ... فقد أعطيتَ مِبْراداً سَخُونَا
بأهلى ما ألذّكِ عند نفسى ... لو أنكِ بالكلام تُعَرِّينا
كأنكِ ظَبيةٌ مَضَغتْ أراكا ... بوادي الجِزْع حين تُبغِّمينا(٣)

جوابه للوليد حين سأله عمن ترك عند نسائه

وذُكر أنّ الوليد بن يزيد قال لابن ميّادة فى بعض قَدَماته عليه : مَن تركتَ عند نسائك ؟ فقال : رَقيبين لا يُخالفانى طرفةَ عَيْن : الجُوع والعُرْى .

عدوله عن الخروج

وذُكر أن ابن ميّادة مَدح أبا جعفر المنصور بقَصيدته التى يقول فيها :

* طلعتْ علينا العيسُ بالرَّمّاح *

ثم خَرج من عند أهله يُريده ، فمر على إبله ، فحُلبت له ناقة من إبله ، وراح عليه راعيه بلَبنها فشربه، ثم مَسح على بَطْنه ثم قال : سُبحان الله ! إن هذا لشَرَهٌ ! يَكفينى لبن بَكْرة وأنا شيخ كبير ، ثم أخرجُ وأغتربُ فى طلب المال ! ثم رَجع ولم يخرُج . وهذه القصيدة من أجود شعر ابن ميّادة ، وأولها :

(١) الصوار : القطيع من البقر .
(٢) طبرية : نسبة إلى طبرستان .
(٣) التبغيم : ترخيم الصوت .

وكواعبٍ قد قُلْنَ يومَ تواعُدٍ قولَ المُجِدِّ وهنَّ كالمُزَّاحِ
يالَيتنا فى غيرِ أمرٍ ثائرٍ طَلَعتْ علينا العيسُ بالرمّاحِ
بينا كذاكَ رأينَنى مُتعصِّباً بالخزِّ فوق جُلالةٍ[1] سِرْداحِ
فيهنَّ صَفْرَاءُ المعاصِمِ طَفْلَةٌ بيضاءُ مِثلُ غَريضةٍ[2] التُّفّاحِ
فنظَرْنَ من خَلَلِ الحِجالِ بأعْيُنٍ مَرْضَى يُخالُطُها السَّقامُ صِحَاحِ
وارتَشْنَ[3] حينَ أردْنَ أنْ يَرْمِينَنِى نَبْلاً بلا رِيشٍ ولا بِقِداحِ

يقول فيها فى مَدْح المَنْصور وسائر بنى علىّ بن عبد الله بن العبّاس :

فلئن بقيتُ لألحقنَّ بأبْحُرٍ يَنْمِينَ لا قُطُعٍ[4] ولا أنزاحِ
ولآتينَّ بنى علىٍّ إنهم مَنْ يأتِهم يُتَلقَّ بالإفْلاحِ
قومٌ إذا جُلِبَ الثّناءُ إليهمُ بِيعَ الثناءُ هناكَ بالأرباحِ
ولأَجْلِسنَّ إلى الخليفةِ إنه رَحْبُ الفِناءِ بواسعٍ بَحْباحِ

وهى طويلة .

شعر له فى مطر أصاب الحاج وصواعق

وحكى بعضُهم قال :

اعتمرتُ فى رجب سنةَ خمس ومائة ، فصادفنى ابنُ ميّادة بمكة وقَدمها مُعْتمراً ، فأصابنا مطرٌ شديد تهدّمت منه البيُوت وتوالتْ فيه الصَّواعق ، فجلس إلىّ ابنُ ميّادة الغَدَ من ذلك المطر ، فجعل يأتينى قومٌ من قومى وغيرهم فأستخبرهم عن دلك الغَيث ، فيقولون : صَعِق فلان ، وانهدم مَنزلُ فلان . فقال ابنُ ميّادة : هذا العَيث[5] لا الغيثُ . فقلت : فما الغيث عندك ؟ فقال :

(١) الجلالة : الناقة العظيمة . والسرداح : الطويلة . وقيل : الكثيرة اللحم .
(٢) الطفلة : الجارية الرقيقة الناعمة . والغريضة : الطرية .
(٣) ارتشن : اتخذن لها ريشاً .
(٤) قطع : قد انقطع ماؤها . الواحد : أقطع . وأنزاح : قد نزح أكثر مائها . الواحد : نزح ، بالتحريك .
(٥) العيث : الفساد .

سحائبُ لا من صَيِّبٍ ذى صَواعقٍ ولا مُحرقات ماؤهن حَمِيمُ
إذا ماهبطْنَ الأرضَ قد داء[1] عودُها بكَيْن بها حتى يَعيش هَشيم

وفوده على عبدالواحد ومدحه إياه

ووَفد ابنُ ميّادة على عبد الواحد بن سُليمان بن عبدالملك بن مَروان أميرالمدينة ، فمدحه بقوله :

مَن كان أخطأه الرّبيعُ فإنما نُصِرَ الحجازُ بغَيْثِ عبد الواحدِ
إنّ المدينة أصبحتْ مَعمورةً بمُتوَّجٍ حُلْو الشّمائل ماجد
ولقد بَلَغْتَ بغير أمرٍ تكلُّفٍ أعلَى الحُظوظ برغم أنفِ الحاسد
وملكتَ ما بين العِراق ويَثْربٍ مُلْكاً أجارَ لمُسلمٍ ومُعاهِد
مالَيْهما ودَمَيْهما من بعد ما غَشَّى الضعيفَ شُعاعُ سيفِ المارِد

مدحه جعفر بن سليمان معرضاً بالعفو عن بنى أمية

ومَدح أبنُ ميَادة جعفر بن سُليمان بن علىّ بن عبد الله بن العبّاس ، وعرّض بإشارته عليه بالعَفْو عن بنى أُمية والتذكير بأرحامهم بقوله :

لَعَمْرُك ما سُيوفُ بنى علىٍّ بنابيةِ الظُّباةِ[2] ولا كِلالِ
همُ القومُ الأُلَى وَرِثوا أباهم تُراثَ محمّدٍ غيرَ انتحال
وهم تَرَكُوا المَقالَ لهم رفيعاً وما تركوا عليهم من مَقال
حَذَوتم قومَكم ما قد حذَوْكم كما يُحْذَى المِثال على المثال
فرُدُّوا فى جِراحكُم[3] أساكم فقد أبلغتُمُ مُرَّ النَّكال

وذُكر أنّ جعفر بن سُليمان قال لأبن ميّادة : أنت الذى تقول :

بَنى أسَدٍ إنْ تَغْضبُوا ثمّ تَغْضبُوا وتَغْضب قُريشٌ تَحْمِ قَيْساً غِضابُها

فقال : لا والله ما هكذا قلتُ . قال : فكيف قُلتَ ؟ قال : قلتُ :

بنى أسد إن تغضبوا ثم تغضبوا وتعدل قُريش تَحمِ قيساً غِضَابها

(١) داء عودها : أصابه الداء .
(٢) الظباة : جمع ظبة ، وهى حد السيف والسنان والنصل . (٣) الأسى : المداواة .

قال : صدقتَ ، هكذا قلتَ . وهذا البيتُ من قصيدة يهجو بها ابنُ ميّادة بنى أسد و بنى تميم و يفْتخر بقَيْس ، منها :

وأحقرُ محقُورٍ تميمٌ أخوكمُ ... و إن غَضبتْ يَرْبُوعها(١) ورِبَابُها
ألَا ما أُبالى أنْ تُخَنْدِف(٢) خِنْدِفٌ ... ولستُ أبالى أن يَطِنَّ ذُبابها
ولو أنّ قيساً قَيْسَ عَيْلانَ أقْسَمتْ ... على الشَّمس لم يطلُعْ عليك حِجَابها
ولو حاربتْنا الجنُّ لم نَرفع القَنَا ... عن الجنّ حتى لا تَهِرَّ كِلَابها
لنا المُلْك إلّا أن شيئاً تَعُدُّه ... قُريشٌ ولو شئنا لذلّت رِقَابها
و إن غَضبتْ من ذا قُريشٌ فقُل لها ... مَعَاذ الإلٰه أن أكونَ أهابها
و إنّى لقَوّالُ الجواب و إننى ... لمُفْتجر(٣) أشياء يُعْيِي جوابها
إذا غضبتْ قيس عليك تقاصَرتْ ... يداكَ وفات الرِّجلَ منك رِكابها

هو وعبد الصمد ابن على

وقيل : إن عبد الصمد بن علىّ بن عبد الله بن العبّاس أحضر ابن ميادة ، فلما دَخل إليه سلّم عليه بالإمرة ، فقال له : لا سَلّم الله عليك ياماصّ كذا وكذا من أُمه . فقال ابنُ ميّادة : ما أكثرَ الماصّين ! فضحك عبدُ الصمد ودعا بدَفْتر فيه قصيدةُ ابن مَيّادة هذه ، ثم قال لابن ميّادة : أُعتِق ما أملك ، إن غادرت منها شيئاً ، إن لم أبلُغ غيظَك . فقال ابن ميّادة : أُعتق ما أملك إن أنكرتُ منها بيتاً قلتُه أو أقررتُ ببيت لم أقُلْه . فقرأها عبدُ الصمد ثم قال له : أنتَ قلت هذا ؟ — يعنى قوله :

لنا المُلْك إلّا أن شيئاً تَعدُّه ... قريشٌ ولو شئنا لذلّتْ رقابُها —

فقال : نعم . قال : أفكنت أمنتَ يا بن ميّادة أن ينقضّ عليك بازٍ من قريش فيضربَ رأسكَ ! فقال : ما أكثر البازين ! أفكان ذلك البازى آمِناً أن يلقاه

(١) يربوع والرباب : قبيلتان . (٢) تخندف : تهرول ، ومنه كان اسم القبيلة « خندف » .
(٣) الافتجار فى الكلام : اختراقه من غير أن تسمعه من أحد فتتعلمه .

بازٍ من قيس وهو يسير فيرميه فتَشُولَ رِجْلاَه[1] ؟ فضحك عبدُ الصمد وأمر له بكُسوة .

وفاته

وتُوفى ابن ميّادة فى صدر خلافة المَنصور ، وقد كان مَدَحه ثم لم يفدْ إليه ولا أَنشده ، لِمَا بَلَغَهُ من قلّة رغبته فى مدائح الشعراء .

شعره الذى فيه الغناء

والشِّعر الذى فيه الغِناء لابْن ميّادة واُفتتح به أبو الفَرج أخبارَه هو :

يا خليلىَّ هجِّرا كى تَرُوحا ... هِجتُما للرّواح قلباً قَريحا
إنْ تُريغا[2] لتعلَما سِرَّ سُعْدى ... تجدانى بسِرِّ سُعْدىَ شَحيحا
إنّ سُعْدى لمُنيةُ المُتمنِّى ... جَمعتْ عِفّةً ووَجْهاً صَبيحا
كلّمتْنى وذاك ما نِلْتُ منها ... إنّ سُعْدى تَرى الكلامَ رَبيحا[3]

(١) تشول رجلاه : ترتفع . كناية عن الموت .
(٢) تريغا : تبغيا وتريدا .
(٣) ربيح : ذو ربح .